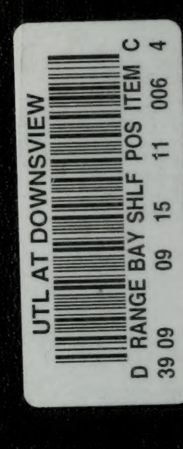
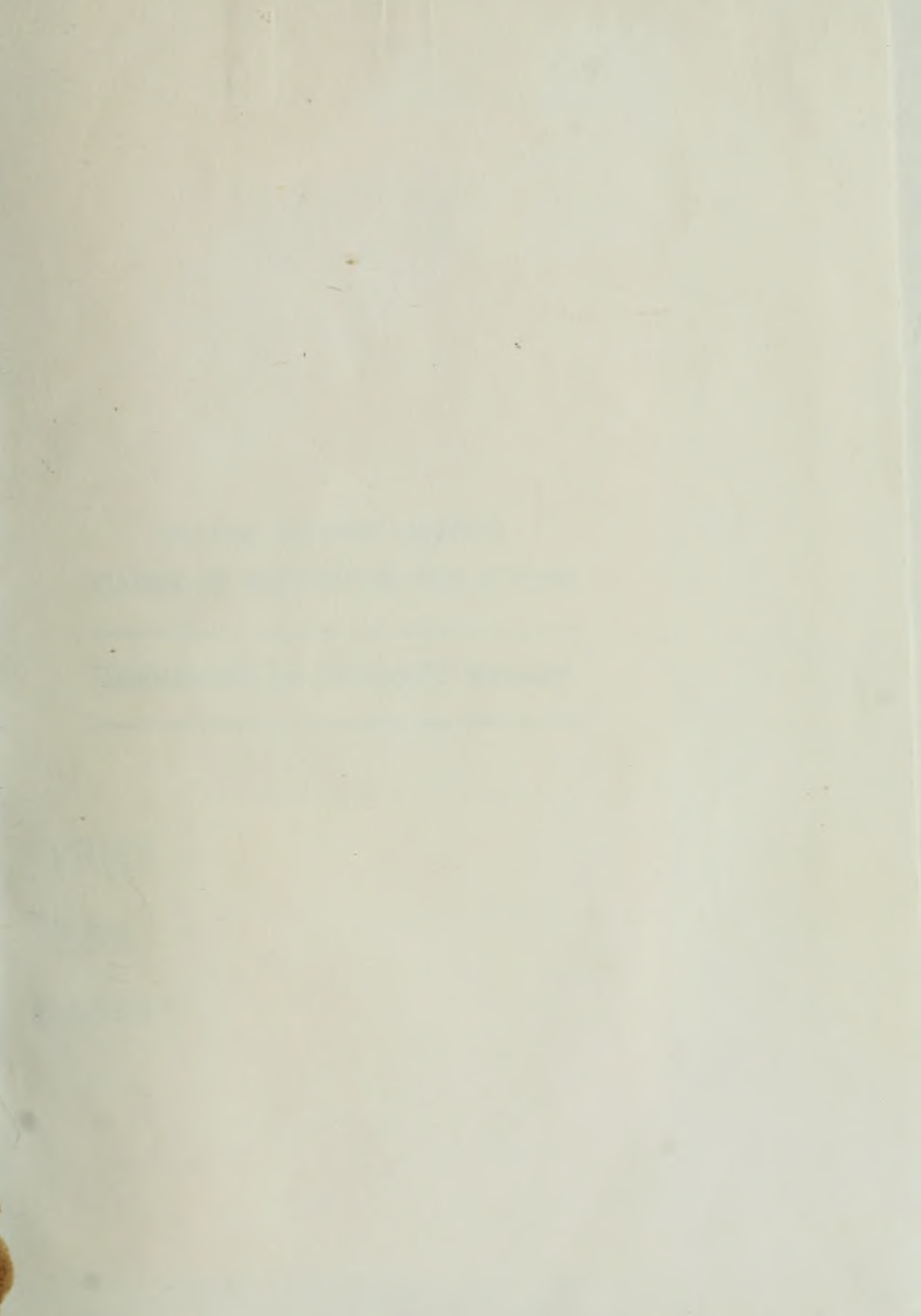

UTL AT DOWNSVIEW
D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 09 09 15 11 006 4





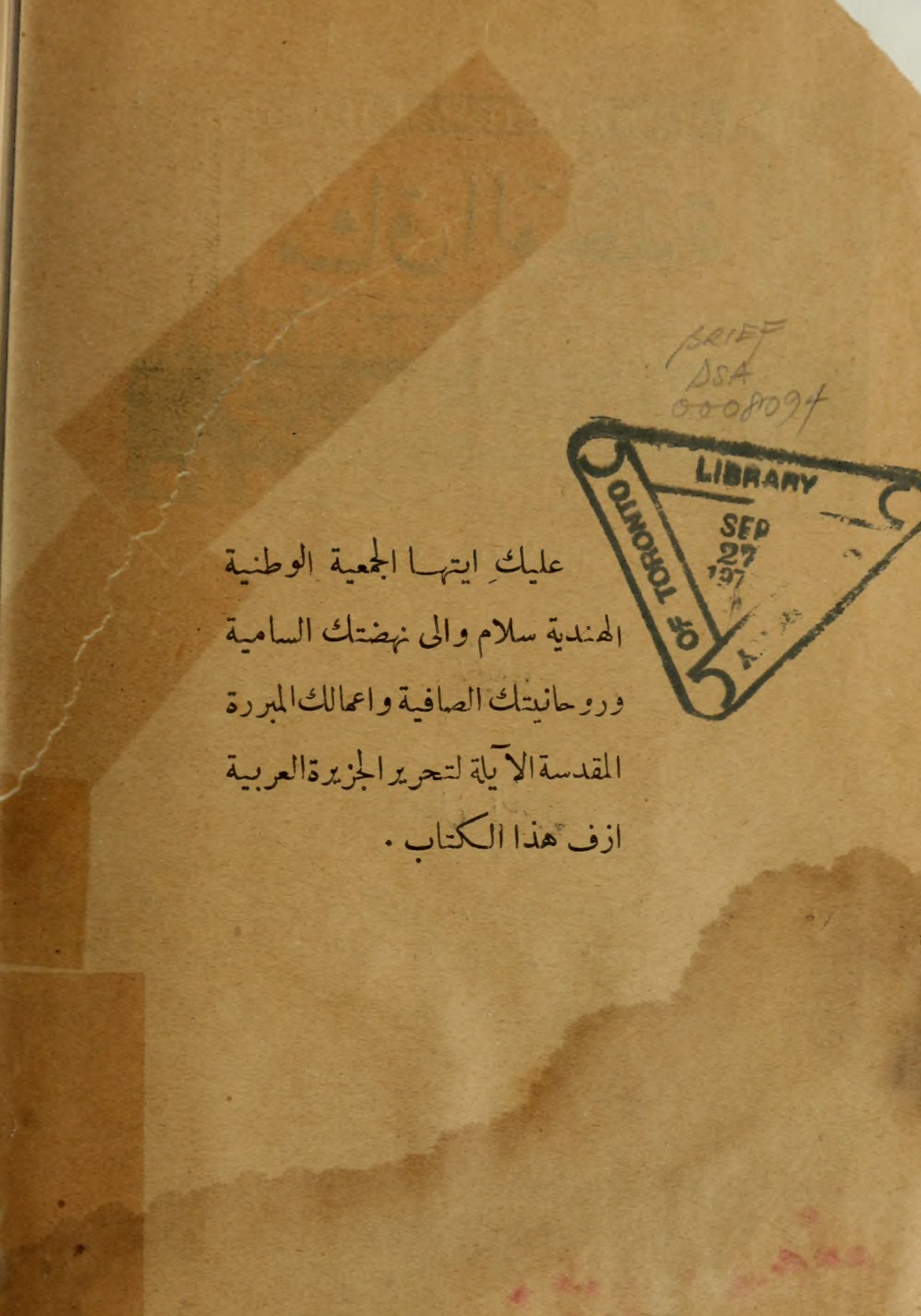


تأليف

جمال الغزي

مفوض عسكري وسكرتير انور باشا سابقاً

مطبعة وزنكوغراف طباره * بيروت



عليكِ ايتها الجمعية الوطنية
الهندية سلام والى نهضتك السامية
وروحانيتك الصافية واعمالك المبررة
المقدسة الآيلة لتحرير الجزيرة العربية
ازف هذا الكتاب .

تمهيد

ان ما دعاني الى وضع قواعد هذا الكتاب ونشرها بين ظهراني قومي ؛ هو اختلاف الافكار وتضارب الاراء فيما بينهم على تأسيس الوحدة العربية . مع ان الوحدة كامنة في الغاية

كل عربي ، يطلب الاستقلال ، واضعاً نصب عينيه ، الرقي الاجتماعي والتضامن السياسي والاكتشاف الاقتصادي والصناعي . اذاً ، الوحدة مستكنة في الغاية . والغاية هي الاستقلال ، وان اختلفت العواطف وتباينت الاراء .

واما هذا التباين الناجم من اختلاف مواقع المحيط الجغرافي فلا بد له من الزوال ، عندما ينكشف النور عن الظلمات ، وتنقشع من ورائه الضالة المنشودة ، التي يتناشدها المتناشدون من العرب على اختلاف اقاليمهم

نعم ؛ ان قسما من افراد الامة العربية ، يعتقد ان هذه النهضة ستقوم في الحجاز وتهب في انحائه المترامية الاطراف وآخر

يظن انها ستظهر في اليمن ، والبعض قد علقوا امالاً كبيرة على اسرة ابن السعود صاحب نجد

وعلى كل حال ، فاختلاف النظر في تعيين الجهة ، يدل على ان روح الحركة متأصلة في الحجاز واليمن ونجد ، وهذا مايبشرنا بقرب العهد واليوم الموعود . لاننا نشاهد بام العين هنا السلطان النجدي يلتهب غيرة على جمع شتات الامة العربية وهو يبذل جهد المستطاع في سبيل انقاذها من ربقة الاستعباد بنشر دعوته « الوهابية »

وهناك الامام اليماني يتوقد غيرة على دفع بوادر الاخطار المحدقة بالجزيرة

وهنالك الملك الهاشمي ، يسعى السعي الحثيث وراء الوحدة العربية ولم شعثها وعيناه ساهرتان لا تأخذهما سنة ولا نوم . بينما نرى الملك فيصل الذي لا يالوا جهداً عن تشتيت غيوم الجهل الكثيفة المتلبدة في افاق الجزيرة ساعياً بتمهيد المفاوز والعقبات التي يصادفها لاحياء المدنية العربية المنقرضة والامير عبد الله باذلا النفس والنفيس في سبيل تحقيق تلك الاماني الشريفة

ونحن نشعر عن بعدٍ ما يذوقه سلطان عمان البعيد عنا من المرائر والحسرات المنطوية طي ضميره الحي . وننظر بعين الاسى

الى ما حل بامير الكويت وشيوخ البحرين من بوائق الاستعمار المتوارية وراء ستار الاستقلال . هذا وقد طاش سهم من عزا الى اولئك الملوك والامراء الخيانة والشذوذ عن التذرع بالوسائط المؤدية الى استقلال بلادهم وتطهيرها من ادران النفوذ الاجنبي بل اليوم في فضاء الجزيرة اهتزازات حية كهربائية تهتز لها القلوب وتجتمع حولها الامال . فلو شرحت قلب جنين عربي في الارحام وحللت دمه ، لوجدت نسيج القلب هو من روح الوطنية وخميرة تلك الدماء الطاهرة هي الاستقلال

فكيف والحالة هذه ؛ الصاق الخيانة والغدر باولئك الامراء الذين هم يعتقدون بانهم اصحاب هذه البلاد وهي ملك اجدادهم . فالافكار والانظار اليوم في جزيرة العرب ؛ تتحد في نقطة واحدة الا وهي الوحدة

فالسوري يطلب اليقظة والعراقي يتمنى النهضة والفلسطيني يدعو الى التضامن . ونمو هذه الحواس والشعور في قلوب ساكني الجزيرة العربية على نمط واحد ، يدل على قرب ميلاد طفل مفتول الساعدين ، ذو عزم وبصيرة وهو الذي سيقودهم الى نيل مبتغاهم . ولا يلبث حين يخلق ؛ ان تلتف حوله الامة العربية باسرها ، صغيرها و كبيرها ، نساؤها ورجالها ، ملوكها

وشعوبها . لانه هو المنقذ الاعظم الحقيقي

وهذا المخلوق المعنوي ليس هو الا مبدأ جديد :

مبدأ الحرية والاستقلال ، مبدأ الوطنية والايمان .

فاذا كانت مبتدعات الامة واعمالها مستمدة من روحها فان هذه الروح هي حبلى . تريد ان تلد . وقد سبق وسمعنا ولا نزال نسمع بكاؤها الذي يدل على شعورها بألم الولادة

هذا انينها الذي يدنو من مسامعنا ، ينعكس صداه الى قلوبها فيحرك عوامل ادمغتها ويوحي اليها كتابة ما تشعر به من الشواعر على صفحات جرائدها ومجلداتها الخالدة

وتلك هي اهتزازات الخطب الرنانة في فضاء الجزيرة العربية تهلل وتبشر بقدوم هذا المخلص

فلا ترى عينين عربيتين ، جارحتين الا وصورتا لك روحاً وجيعة ، صابرة وسحنة مملوءة بشقاء الامل والانتظار . نعم ، لقد ابطأ ذلك المبدأ في الظهور ومل اهله من الانتظار . لان المبادئ هي صاحبة الدل والدلال . لم تأت الا بعد ان تعي عشاقها ولولا استغناؤها الفطري لما كانت لنتائجها المدنية وشانها الرفيع حياة طويلة ، ولا كان يعتنقها اهلها بحسرة وتنهد وسهولة وسرعة

قام مبدأ الوحدة الالوهية قبل نيف وثلاثة عشر قرناً ،

فاعتنقه اهل الجزيرة وا كتسحت الجهات الاربعة ناشـرة اياه .
وابتدعت من الفنون والادب والصنائع على عهد الدولة العباسية
ما يبكم القلم ويخرس اللسان

ولكن ما العمل ! وقد سبق السيف العذل و كان ضعف
ذلك المبدأ سبباً جديراً بضعف الامة العربية حتى انقلبت رأساً
على عقب .

*واليوم هو ذا اليوم الذي سيلد فيه ذلك المبدأ هذا المولود
الجديد :

فكرة الوحدة العربية وروح الوطنية الحقيقية . وهناك
امراء وسلاطين منتظرون قدومه بفارغ الصبر وعلماء ومبشرون
مستعدون لنشره وتأييد دعوته . وشبيبة ناهضة تلتف حـوله
حفظاً على كيانه من الشوائب

اما جل القصد من وضعي قواعد هذا الميثاق العربي . فهو
تسهيل ولادة ذلك المبدأ الشريف ، لتنبيه الافكار واستلفات
الانظار الى مسقط رأسه الذي هو متوارٍ عن العيان حتى هذا
الحين .

ولعل كتابي هذا لا ينطبق تمام الانطباق على شعور واماني
البعض . لانني واضع فيه هيئة غير التي ينظرونها ونقطة غـير

التي يرصدونها . بيد اني ماقمت من ساعتي واقدمت على هـذا العمل ، الا وكنت قد بذلت اقصى العناية في سبيل اظهار مكانة الحقيقة الناصعة . كما لم يخطر لي ببال تجريد اسنة قلمي على سياسة دولة من الدول ، الا اذا كانت ترمي بسياستها هذه ؛ الى تنكيل اماني الشعوب العربية ؛ بعد ان نقبت غوامض سياستها تنقيباً تاماً يحيط بطاوي الامور وخفاياها ؛ واظهرت حينذاك ما تكنه من السرائر الغامضة ؛ مدوناً اياها بمواد واضحة ثابتة بعدما استخرجتها من حقائق علمية راهنة .

وما ذلك الا ، لاعتقادي باننا بحاجـة ماسة الى مبتدعات الدور المدني الحديث ومخترعاته ومكتشفاته . وهذا ، لا يتسنى لنا الوصول اليه الا ؛ بانتهاز الفرص من خلال المناظرة السياسية والتجارية السائدة على دول اوروبا في الشرق . ولنا العبرة على ذلك مصطفى كمال باشا الذي توصل بدهائـه السياسي الى نيل مبتغى الامة التركية من وراء هذه المناظرة السياسية ؛ حتى اصبح هو وامته ذوو المكانة الرفيعة والكلمة النافذة في مؤتمر (لوزان) فكانه ؛ كان بذلك فاتح (باريز)و(لندره) و(نيورك) و(رومية) بارغامه اياهم على قبول شروطه الصلحية التي املاها بانفراد على عصمت باشا .

وهكذا استطاع ان يكسر الاغلال الاجنبية والقيود الغربية ويطرد جيوش الاقتصادية ويفرق شذر مذر دعاة الاحتلال السلمي ويلغي جميع المؤسسات المتمردة عن الخضوع لقانون البلاد باسم الامتيازات الاجنبية . وسد في وجوههم ينابيع الذهب السائلة من بطون الاناضول واحشائه .

ففي هذا عظة بالغة للامم الشرقية .

ولعل يخيل للقاري الكريم ان لي قصداً ارمى اليه من وراء ما اكتبه في هذا الموضوع . على اني وايم الحق لااتوخى من وراء هذا الكتاب الا اظهار الحقائق الكامنة وراء ستار المجهولات

فالملك حسين والسلطان عبد العزيز بن السعود والملك فيصل والامام يحى حميد الدين والادارسه والامير عبد الله هم عندي ملوك وامراء ذوو حسب شريف ورؤساء طوائف وحكومات عربية ومحبتي واحترامي لكل منهم لايزيدان عن بعضهم بعضاً

اني اسير للحقيقة وعبد للامة العربية وحدها . ولا اطأطئ الرأس الا لمن خدم الامة وكان صادقاً لها فهذه هي شواعري التى دفعتني الى تأليف هذا الكتاب . لا شك انه يوجد علماء وسياسيون محنكون قد كان بامكانهم تأليف مجلدات ضخمة تحتوي على نظريات تجدي نفعاً اعظم ما ستثمره هذه التجربة

القلمية . ورب منتقد يجرد اسنة انتقاده علي قائلا ، ان تطبيق هذا الميثاق العربي على حالة جزيرة العرب الحاضرة لهو احلام ذهبية . فاقول اني شاكر لكل منتقد لعلمي بان الانتقاد روح الحق واساس العمران . ولولا الانتقاد ، لما ظهرت الحقائق الواضحة .

فنحن الان ، معشر العرب ، نحتاج الى رجل عظيم وقائد زعيم ؛ كما قال الشيخ جمال الدين الافغاني ؛

لا يُصلح هذا الشرق الا مستبد عادل

وقال المارشال مولتكه الشهير :

« ان العنصر الراقي في بلاد الروس والترك هو الحكومة والعنصر المحافظ على التقاليد هو الشعب »

فمن هذه التصريحات الهامة يفهم ان مصدر الرقي والحضارة في الغرب هو الامة لا الحكومة واما عندنا في الشرق فالعكس بالعكس .

ومما قاله العالم الاجتماعي الكبير « دوبون وايت » في هذا الصدد :

« تخالف الروح الفرنساوية سائر ارواح الشعوب الاوروبية على اختلافها وذلك لانه ليس من خلقها الفطرى ان تنجح

باعمالها الضرورية او العمرانية من غير ان تحثها عليها حكومتها وتساعدها للقيام بها »

فكيف بنا نحن العرب لا نعجب من ان نرى انفسنا مسترسلين الى اليأس معتقدين اننا امة لا تقوم قومة رجل واحد لجمع كلمتها على الوحدة . مع ان التاريخ العالمي ينبئنا ان الامم التي كانت متلبسة بحالتنا الحاضرة التي نحن عليها اليوم ؛ قد جمعوا قواهم ووحدوا كلمتهم وبلغوا مناهم

فهذه هي الامة الافرنسية التي قطعت شوطاً بعيداً من المدنية والحضاره — بعد اندلاع لسان الثورة في بلادها — لم تزل منقادة لزعمائها ودعاتها الذين يحثونها للقيام ويساعدونها على الاعمال كما هو ثابت باقاويل مشاهير علماؤها ورجالها

لذلك ؛ كنا احوج من غيرنا الي زعيم مستبد عادل . فها ان الزمن والمحيط واستعداد الامة قد مهدت السبل لظهور ذلك الزعيم المنتظر

فاذا انعمنا النظر في وقائع التاريخ وتتبعاته لوجدناله امثالا عديدة . منها بطرس الاكبر الذى ظهر في القرن الثامن عشر بينما كانت الصقالبة في حالتي الهمجيه والانحطاط اخذ بيدها مرتقياً ذرى المجد والسؤدد كما يتضح ذلك مما يأتي :

ان بطرس الذي كان اعظم القياصرة بطشاً واسدهم رأياً وحكمهم فعلاً ، نودي به ملكاً وهو حديث السن ، لا يقدر على سياسة الملك . فنابت عنه شقيقته الاميرة (صوفى) وابعدته الى الارياف . ولما دنا السابع عشر من عمره خلع شقيقته وسجنها في احدى الاديرة وتولى زمام الملك

وقد كانت اوان ذاك الدولة الروسية دويلة لا ساحل لها ولا مدائن ذات اهمية . حتى ان (موسكو) ما كانت الا قرية كبيرة ليس الا .

اما تقاليد شعبها وعقائده وعوائده ، فلم تخرج عن حيز الهمجية ، لاعتقادهم بان حلق اللحى من الكبائر والتدخين من المحرمات — باعتبار انه نبات شيطاني — كما انهم كانوا يحجبون نساءهم ولا يسمحون لهن بالخروج الا وعلى وجوههن الحجاب ولا يحترفون صنعة وكانت خشونتهم وقذارة ملابسهم مدعاة لهزء الامم بهم وكانوا ينامون على الارض باثوابهم القذرة التي لم يخلعوها الا بعد ان تتمزق من نفسها ويتناولون الطعام بايديهم .

ولما ادرك بطرس ، ان علومه ومقدرته الشخصية ليسا هما كافيين لتجديد اساس الحكومة وتشييد بنيانها وتمدين شعبها كما تقتضيه الظروف والاحوال ، ذهب الى هولانده ودخل في

احدى دور سفائنها كعامل بسيط وتعلم صنع الاساطيل وانشائها ثم بقي مستمراً على سياحته الاوروبية حتى وصل الى بلاد النمسا الالمانية في ذلك الوقت وتعلم كيفية تأسيس الجيوش والفنون الحربية . وقد بلغه وهو هنالك ظهور الرجعيين وقيامهم على ماوضعه من جديد لرقي البلاد واستنهاضها من هوة الجهل . فرجع حالا وقمع الثورة بكل شدة وحكم بالاعدام على ابنه العزيز وجلد امرأته وهدم كل حائل وقف امام عزمه الشديد وقتل اناساً كثيرة . ولكن كان ظلمه لايتجاوز حدود العدل ودائرة نفع شعبه المحبوب .

وبعد ذلك كله تم له ان يصرف زمن ملكه في ادخال كل ما اعجب به من فنون اوروبا ونظاماتها الى بلاده وغاية ما تاقت اليه نفسه من التمدن الاوروبي هو الاختراعات المادية والاصطناعية ، اذ كان هو نجاراً وجندياً وبحاراً ونقاشاً .

فهكذا ؛ انشأ الادارة السياسية والف مجلس الاعيان لتدريب الامة على ادارة شؤن البلاد واسس فيها الضابطة وشيد المعاهد العلمية والمدارس .

وكانت هذه التجددات سبباً لتحريك عوامل التعصب المكنون في قلوب الامة الروسية حتى اصبحت عدواً لدوداً له

فاتهمه الكهنة بالمروق وهو لم يعبأ بكل ما كان يحتاطه من المصاعب . بل اخذ ناهضاً بجيشه على السويد فحاربها مرة بعد اخري كان الفشل والانكسار في جانبه بجميع هذه الحروب . غير انه كان لم يدع سبيلاً بان يأخذ اليأس منه مأخذه ودام مثابراً على القتال متلافياً النواقص والخطيآت العسكرية التي كانت سبباً لانكساره في كل المواقع الحربية حتى انفسح له مجال الظفر والانتصار واسترجع سواحل بلاده من السويد والدولة العثمانية وبذلك افتتح ابواب التجارة عـلى رحبها وانشأ الاساطيل واصبحت روسيا حينداك من اعظم الدول قوة وبأساً

فمن هنا يظهر للناقد البصير ، كيف تتدرج الامم باديء ذي بدء في مدارج الرقي صادرة من الحكومات الى الامم ، وكيف تثمر مشاريع الزعيم ، المستبد العادل الذي نوهنا عنه

فصفوة القول ؛ ان الظروف والزمان قد غيرا مزاج الامة العربية حتى صار من الممكن جمع شملها وضم اوصالها بعضاً الى بعض ؛ لانها قد اختمرت على مبدأ القومية واصبحت عـلى ابواب التكوين .

[ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم]

«»—«»

الفصل الاول

١

الانقراض

— نظرة تاريخية مجملة —

— كيف تأسست الدولة العربية وانقراض بني امية —

ان مواضيع كتابنا هذا تبحث في تكييف الوحدة العربية بجمع الامارات الصغيرة العربية فيها تحت اسم واحد وروح مشتركة .

هذا ، وحيث كان قد سبق للامة العربية تأسيس دولة عظيمة ثم انقرضت تلك الدولة فلا بد لنا ان نخوض غمار تاريخها ، كي نستخرج منه تلك الكوارث التي سببت سقوط الامة ودولتها

فلذا وضعنا نصب اعيننا انتقاد الاموات قبل انتقاد الاحياء . وذلك لان الاحياء لاتعتبر الا جيلًا واحداً ، على حين ان الاموات تعد بألوف من الاجيال اذ ، في الوف من الاجيال

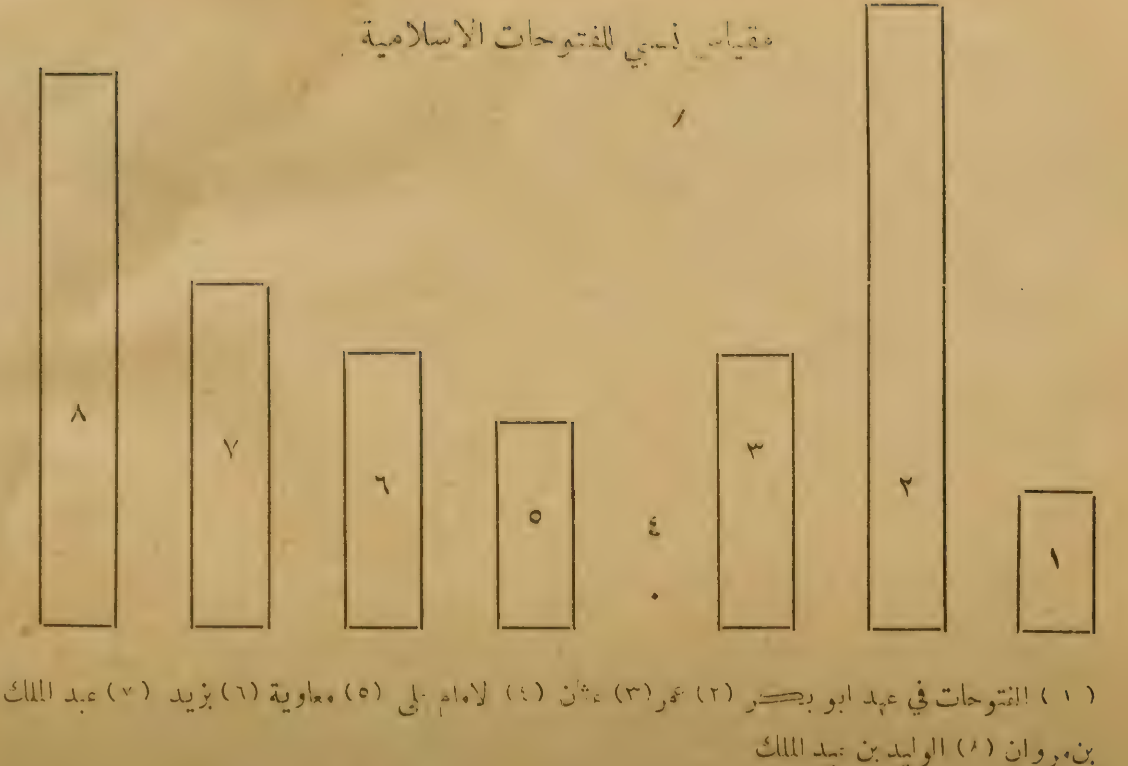
يتكرر وقوع فضائل الامم ونواقصها وطبائعها وامزجتها وبها يتوفر للناقد درس روح الامم وكشف القناع عن الاسباب التي ادت بها الى الانقراض .

ما التاريخ الا مجموعة حوادث لاعمال الامم الغابرة وافعالها وما الاحياء الا ميراث تلك الامم واثمن ما ورثناه عن اولئك الاسلاف انما هو الوطن العزيز والروح والاخلاق التي فعلت فيما سبق . لذلك يقتضي ان نستخرج جميع خطايانا ونواقصنا من تاريخنا .

اما تاريخ العرب بعد الاسلام ، فينقسم الى ثلاث ادوار . الدور الاول الذي هو دور النهضة المقرون بالفتوحات فيبدأ من تاريخ الهجرة وينتهي في آخر عهد الدولة الاموية سنة ١٢٥ هجرية والدور الثاني الذي هو دور الوقوف ، ظهر مع بني العباس وتوارى في عهد المتوكل سنة ٢٤٧ والدور الثالث ، الذي هو دور السقوط ابتدأ من بعد مقتل المتوكل على الله ثم اخذ ينهب جسم الدولة مؤدياً بها الى الانقراض حتى اليوم الذي انسحبت فيه الدولة العثمانية من جزيرة العرب .

٭٭٭

مقياس نسبي للفتوحات الاسلامية



(١) الفتوحات في عهد ابو بكر (٢) عمر (٣) عثمان (٤) الامام علي (٥) معاوية (٦) يزيد (٧) عبد الملك بن مروان (٨) الوليد بن عبد الملك

ومما يدعو الى العجب في الدور الاول ، عظيم الحماسة في الجيوش وقوة الروح في الفتوح بعد ارتحال النبي « صلعم » وقد كانت هذه الغزوات والفتوحات في عهد عمر بن الخطاب (ر.ع) مستمرة دائمة الى ان اعتراها وقوف قليل في عهد عثمان بن عفان (ر. ع .) مع ان مدة خلافة الاول عشر سنين

فمن هنا تعلم ماهية قول (الناس على دين ملوكهم) . اما وقد فترت نهضة الفتوحات عقب سنة ٣٥ ثم تثبطت عزائم اصحابها وما زالت حتى سنة ٨٠ هجرية ومن ثم عادت ونهضت من كبوتها مكتسحة الاقطار

فالسبب الطارئ على هذه الفترة ، هو ناجم من تحويل تلك القوة — قوة الجيش التي كانت تسحق بطش الاكاسرة والقياصرة وتجتاح بلادهم وتغنم اموالهم — الى ضرب اعناق بعضهم بعضاً

فانظر الى هذه الفترة التي مرت عليها السنون وكرت عليها الاعوام من غير ان يرى في خلالها فتحاً من الفتوحات ولا غارة من الغارات فكيف مرت ، وكيف مضت من غير جدوى وهاك ما احصيناه من الوقائع المؤلمة

سنة هجرية	الوقائع
٣٥	مقتل الخليفة عثمان (ر. ع .)

سنة هجرية	الوقائع
٣٦	وقعة الجمل بين الامام علي (ع) وطلحة والزبير « لاجل الخلافة »
٣٧	حرب صفين . « لاجل الخلافة »
٣٨	حرب الخوارج « لاجل الخلافة »
٤٠	مقتل الامام علي (ع) « لاجل الخلافة »
٤١	قيام معاوية وجنوده في وجه الحسن (رض) وتنازله لمعاوية عن الخلافة مرغماً « لاجل الخلافة »
٤٩	موت الحسن (رض) مسموماً من قبل معاوية « لاجل الخلافة »
٦٢	وقعة كربلاء الهائلة واستشهاد الحسين (رض) مع اهل بيته
٦٣	وقعة الحرة وما عقبها من النهب والسلب والقتل والسبي في المدينة واهلها « لاجل الخلافة »
٦٤	حصار مكة ورمي الكعبة بالمنجنيق واحراقها بالنار الرومية
٦٦	حرب التوابين « لاجل الخلافة »
٦٦	ظهور المختار مطالباً بدم الحسين وفتكه بافراد الناس

« لاجل الخلافة »
٦٧ القتال بين مصعب الزبير والمختار « لاجل الخلافة »
٦٨ القتال بين مصعب وجيوش بنى اميـة « لاجل الخلافة
٧٣ حصار مكة ثانياً وقتل ابن الزبير « لاجل الخلافة »

فمن محتويات هذا الجدول ومشتملاته يستخرج القـارئ ثلاث حقائق هامة :

الاولى : التغيير العظيم الذي طرأ على اصول الخلافة والسلطنة في الدولة العربية

الثانية ضعف الايمان الذي خامر صدور ملوك بني امية

الثالثة استبداد ملوك بني امية

فلو شبهنا مجموع هذه الاغلاط الثلاث بجسم لكان رأس ذلك الجسم الخطأ السياسي الذي طرأ على اصول الخلافة . اذ من البديهيات ان تبديل مبدأ قبل ان تختمر مشارب الامة عليه هو خطير جدا . لانه يكون سبباً لحلول الويـلات والمصائب في الدول والامم ، كما كان كذلك علة الفتن والمذابح الاهلية في دولتي الاموية والعباسية وسيتضح جلياً من بحثه الخاص

ان الدين والاسلام لم يغيرا مما كانت عليه العرب في ذاك

العهد شيئاً من الاصول الادارية والسياسية وتشكيلاتها . اذ كان الشكل السياسي والاداري للحكومة العربية في (مكة) منذ بزغ نور الدين الاسلامي ، عبارة عن جمهورية مؤلفة من الاشراف (بلا رئيس) « Oligarchie » هذا وان صح التشبيه فنقول ان شكلها الوضعي كان اقرب شيء للجمهورية السويسرية من غيرها من الحكومات الشعبية والدموقراطية اليوم

وقد ترك الاسلام هذه المسئلة السياسية لاهلها بدليل قوله تعالى : (لست عليهم بمسيطر) وامرهم شورى بينهم) وقال ابو بكر الصديق (رض) سألت رسول الله (ص) عن هذا الامر بعده ؛ فقال لي :

(يا ابا بكر ، هو لمن يرغب عنه ؛ لا لمن يرغب فيه ويجاحش عليه ؛ ولمن ينضال له لا لمن يتضح اليه لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي .)

وقد اتفقت الامة بعد موت النبي (ص) على الشكل الجمهوري المفطورة عليه وجعلته جمهورية رئاسية ينتخب رئيسها من قبل الشعب

وهكذا دامت الجمهورية الى عهد الحسن (رض) ومن ذلك الحين انتقلت من دورتها الدينية الى دورتها السياسية بانتقالها من

الشورية الى الملكية الارثية

اما هذه الجمهورية فلو بقيت على حالتها الاصلية لتطورت اطورا مختلفة ثم عادت وانحصرت في السبطين . فكان التطور التي تتطور به قد جعلها مزيج جمهورية ملكية

جمهورية بحيث انه لا يتم لصاحبها الحصول عليها الا بتوقيع الامة على انتخابه وملكية لانها كانت بطبيعتها لا تقبل غير آل النبي (ص)

واليك الدليل على تلك الحروب والمظالم التي اضطرم نارها لاغتصاب بقية السلطنة من السبطين لم تؤثر الا امدا غير بعيد رغم ما اقترفته ايدي الجناة من التشنيع والتمثيل في آل البيت . اذ قام ابو مسلم بعد عصر ونشر دعوة السبطين فائراً بها . غير انه حيث حصر السلطنة في بني العباس انتشرت على اثر ذلك دعوة العلويين الفاطميين بالمغرب

وحسبك من الدلائل والبراهين على تأييد حجتنا هذه وجود الادارسة في المغرب الاقصى والائمة الحسينية في اليمن والسيد الادريسي في عسير والشرفاء بالحجاز — وفي سلطنة مسقط من قديم العهد — وفي العراق والاردن حديثاً — والسنوسية في برقة وطرابلس وصحاري افريقيا . وكلهم امراء عظام تخضع

لهم شعوب مختلفة

ولكن قام معاوية وطمع بالسلطنة فاغتصبها بعد مقتل الامام علي وتسميم الحسن (رض) وما اكتفى بما فعل لنفسه حتى سعى وراء حصرها بولده يزيد في حياته خوفاً من الهياج بعد وفاته وزوال السلطنة من بيته . وللوصول الى هذه الغاية قد بذل الاموال الطائلة واظهر من الحلم والدهاء ما يحير العقول حتى استقام له الامر بذلك موقتاً

ومن هنا وقع الخطأ الذي لا يتلافى امره ولا يرتق فتقه وذلك لان الجمهورية الشورية قد اصبحت سلطنة وراثية واستبدادية معاً والحق الصراح الذي لآل قريش فيها قد اغتصب لانحصاره ببني امية لا بغيرهم

فالتعدي حاصل من هذه الوجهة على شخصين معنويين احدهما شكل نظام الحكم والسلطنة والآخر شخصية آل قريش المناط بها هذا الحق

فمن جراء هذا التغيير الطارىء على اساس هذا التحكيم تمهدت السبل لمقاتلة العرب بعضها بعضاً . ونتج عنها الفتور المنوه بـه في الفتوحات زهاء خمسين عاماً . وما لبث هذا التغيير ان امتزج في مستقبل الامة وتأصل في عقولها وسرى منها الى

اجسامها ودار فيها دورة الدم في الاجسام وهكذا فسح مجالا للتشيع والتحزب والاختلاف

فكانت نتيجة تبديل الخلافه بالسلطنة وحصرها في نسل بني امية ظهور الخلاف بين الاحزاب التي انهمكت بمقاتلة بعضها بعضاً وهكذا اهمل الجهاد والفتوح بسبب هذه الحروب الداخلية الآيله عن الاختلاف . فمن جراء ذلك تفرقت الكلمة وانتشرت الفوضى وتبددت القوى وانحلت عري الوحدة بين العرب الذين كانوا عاملين على انفاذ احكام ما كانوا يتخذونه دستوراً لاعمالهم وسياستهم الا وهو « ان كسروية كسرى وقيصرية قيصر واخدان فارس وابناء الاصفر قوم جعلهم الله حرزاً لسيوفنا وحرزاً لرماحنا ومرمى لطعاننا وتبعاً لسلطاننا »

فلو بقيت الخلافة شورية لاستمرت جيوش العرب على الفتوح في مدة هذه الخمسين سنة وافتتحت فتوحات واسعة واكتسحت الممالك الشاسعة . ولما انكسرت جيوش عبد الرحمن الخافقي في بواتية واوقف فتوح العرب من كان المتغلب على امره في القارة الاوروبيه

وقد كان نصف هذا القرن الذي قضاه المسلمون بمحاربة

بعضهم بعضاً آماداً طوالا استفادت من ورائها الامم الافرنجية جمع شتاتها ولم شعثها وتوحيد كلمتها وجمع قواها لتضرب العرب ضربة قاضية تقضي على آمالهم وتوقفهم عندحدهم من الاصقاع الاندلسية .

على انه لو كانت اوروبا اليوم اسلامية بحتة لكان مجد الاسلام اليوم مخيما على الغرب والشرق معاً . وكنا نحن معشر العرب اقتبسنا علومها وفنونها وصنائعها وكل ما لديها اليوم من دواعي المدنية بلا تردد وقبلناها بلا انتقاد وما كانت تشمئز نفوسنا نحن المسلمين - لشدة تعصبنا — من رؤية كل شيء حديث غربي كما كان هو الواقع فنستنكف وننفر منه ونحاربه ونكفر من كان عاملاً به ونحرم البحث فيه لسابق اعتقادنا بان مصدره مصدر مسيحي ليس الا

فلعمر الحق ان هذا السبب هو السبب الوحيد الذي اخذ بنا الى التقهقر والانحطاط ودنا بنا الى الذل والهوان . واذا كنا قد خطونا خطوة الى الرقي والتمدن ودبت بنا روح الوطنية والقومية فانما ذلك البعث مصدره الاتراك الذين ما تبعناهم وقلدناهم الا لاعتمادنا حق الاعتماد بأنهم مسلمون لم يأتوا بما اتوا به الا كانوا مستندين على احكام الشريعة الغراء

اما وقد شرحنا الكوارث الناجمة عن الخطأ الاول الواقع في التغيير العظيم الذي طرأ على اصول الخلافة فاننا ننتقل الان الى بيان ما حل بالعرب من البوائق والاوصاب الناتجة عن الخطأ الثاني .

***

الخطأ الثاني

اما الخطأ الثاني فهو ضعف الايمان الذي خامر صدور ملوك بني امية وهو اول فساد ظهر في ملوك العرب وتسرب منهم الى الامة العربية ' ابتدأ في يزيد بن معاوية ذاك الملك العربي الاموي الذي حارب اهل البيت نساء ورجالا واطفالا وقتل الحسين (رض) سيد شباب اهل الجنة واستجلب رأسه وقاتل اهل المدينة وحلل دماءهم واستباح حريمهم بجوار ضريح النبي الكريم (ص) الذى ربطت في الروضة المطهرة خيول عساكره واذل الصحابة وختم على قلوبهم وقتلت ام المؤمنين (ام سلمى) ورميت

الكعبة بالمنجنيق وصب عليها نيران النفط واحرق سقف الكعبة وستارها وذبحت حفظة القرآن . كل ذلك يجري وذلك الملك يشرب الخمر على ملأ الناس ولا يهاب احداً وهو ينكح زوجات ابيه . ولا يغرب على احد ان الدين كان اكبر عامل في تمدين العرب وتوحيد كلمتهم واخلاقهم ومنافعهم وكان اسرع من البرق تأثيرا في ارواحهم . اذ كانت العرب قبل الاسلام متفرقة الكلمة وفي بداوة وهمجية لا توصف

الخلاف والنفور كانا ضاربين اطنابهما في كل بقعة من بقاع الجزيرة العربية والقتل والسلب والنهب بين الطوائف المتصاهرة كان الشغل الشاغل لهم مدى هاتيك الاعوام السوداء

ولم يكن لهم لا دولة ولا حكومة بامكانها قمع هذه الفتن ومنع هذه المذابح الاهلية . وكانوا في جهل اظلم من الليل . لان العلوم والفنون والطب والزراعة والصناعة كانت مجهولة عندهم

حتى اذا قدم احدهم الى قرية وكان فيها وباء وخاف على نفسه من ان يتسرى اليه وقف على باب تلك القرية ونهق كما تنهق الحمير اعتقادا منه بان النهيق يقيه شر الوباء . واذا امتنعت البقر عن الشرب ضربوا الثور حتى تنطلق البقر

من معتقليها الجن كما يزعمون . واذا لم تهطل الامطار كانوا يعلقون الاغصان باذناب الثيران بعد ان يحدروها ويشعلوا الاغصان . ويعتقدون ايضاً بان الحرقوص (اكبر من البرغوث) كان يفض بكارة العذارى . وان في بطن الانسان حية تسمى (الصفر) وهي تولد الجوع وكانوا اذا اصاب الابل داء يكوون السليمة منها لاجل ان تشفى المريضة . واذا بلغت ابل احدهم الفاً قلع عين الفحل واذا زادت قلع الاخرى .

وكان احدهم اذا خرج الى سفر عمد الى شجرة عقد غصناً منها حتى اذا عاد من سفره ورأى ذلك الغصن منفضلاً اعتقد خيانة امرأته وطلقها

وكانوا يأكلون الخنافس والعقارب والميتة ووبر الجمل المطبوخ بالدم . واليك من الزوائل التي كانوا يعتقدون بانها فضائل مثل وأد البنات والازلام والانصاب والميسر وشرب الخمور واكل لحم الخنزير في تلك البلاد الحارة . فالدين وحده هو الذي ازال النفور والخلاف ومنع القتال والنهب ووصل الطريق بينهم وجمعهم تحت راية واحدة وشكل من وحدتهم دولة سياسية وشيد لهم حكومة (دموقراطية) شعبية عادلة

وذلك الدين هو الذي وضع لهم قوانين اساسية سياسية

وحقوق ادارية وقوانين جزائية ومدنيــة وقواعد اخلاقيــة واجتماعية فلم يمض عليهم اكــثر من ثلاثــين عاماً حتى رأينا اساطيل هذه الامة التي شرحنا ما كانت عليه من الجهل والتوحش اخذت تفوق اساطيل براطرة بيزانس وقد احتلت الجزر البعيدة في اواسط البحار بينما كان خلفاؤها يجهلون البحور التي لم يحيطوا علماً بها الا بعد ان وصفها لهم احد القواد قائلاً :

« البحر خلق كبير يركبه خلق صغير ان ركد فرق القلوب وان تحول اراع العقول تزداد فيه العقول قلة والسيئات كثرة وهم كدود على عود ان مال غرق وان نجا فرق »

فهذا التعريف أبين للعقول من تصوير الفوتوغراف للانظار لما انطوى عليه العرب من الاستعداد الفطري الذي هب بهم لاستيلاء هذه البحور كلها بعد ان كانوا عاجزين عن وصفها وكل ذلك لم يمنعهم من اجتياح بلاد كسرى وثل عرشه واغتنام تاجه وعلمه وطردوا هرقل وساقوه منكسرا خائباً من دمشق

اوليست هذه المقدرة العظيمة التي ظهرت في مدة وجيزة من وراء اصطناع عمارة مؤلفة من (١٧٠٠) سفينة مستمدة من روح الايمان ؟

نعم وصلت جيوشهم الى صحاري الصين شرقاً والى بحر الظلمات

غرباً والى بلاد الصقالبة شمالا

ولكن ما الذي جعل ٤٦ الفاً تحت قيادة خالد بن الوليد تقاتل امبراطور الشرق وجيوشه التي تربو عن (٢٥٠) الفاً فتكسرهم شر كسرة

او ليس اليقين في الدين الذي كان حليفهم في انتصاراتهم كلها ؟

ولكن يا للأسف قام يزيد الذي لم يدرك ان سلطانه وعرشه هو مؤسس على روح هذا الدين وصلابته احتقر هذا الدين المبين ففعل ما فعله من انتهاك حرمته حتى نفرت القلوب منه فكان معاوية قد بذر بزرة النفور في نفوس العرب من غير ان يستعمل الشدة والفظاعة لعلمه انهما لا يجديان نفعاً فاتخذ الحلم واللين وبذل المال حتى خفف من وطأة تلك الروح السامة التي نمت ونبتت بدماء الابرياء المهراقة بايدي يزيد فلما استفحل امرها واشتدت شكيمتها لم يعد عدل عمر بن عبد العزيز ولا غيره مستطيعاً الوقوف في وجه فروعها الناطحة نفوذ بني امية وسلطانها ٠

وحذا حذوه كثيرون منهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي اراد ان يشرب الخمر فوق سطوح الكعبة فمقتته الامة

وقتلته .

فمن هنا يتبين ان الذي عجل على انقراض أسرة بني أمية وهوى بها الى الوهدة هو ضعف الايمان الذي خامر صدور يزيد والوليد وأمثالهما، حتى نفرت منهم القلوب وتمهدت بذلك السبل لغير اسرة من بني اميه .

وأما السبب الذي فسح مجالاً لارتقاء مثل هؤلاء الملوك الفاسدين عرش السلطنة فهو ذلك التبدل الذي وقع في قلب نظام الخلافة . لانه لو بقي الامر شورى بينهم لما جلس أمثال يزيد على كرسي المملكة . ولما كان صادف العرب والمسلمون تلك الملمات المؤلمة التي آلت على المسلمين والعرب بهدر دماء الكثيرين منهم

***

الخطاء الثالث

ان الخطأ الثالث هو استبداد ملوك بني امية .

ان الاستبداد في عهد بني أميه أشهر من نار على علم . ويضرب به المثل الى يومنا هذا في الحجاج الظالم وزياد بن سميه

وعبيدالله بن زياد الذي كان والي الكوفة وحارب الحسين وشيعته والذي خاطب زينب بنت الامام علي (رض) لما أحضر له رأس الحسين ووضع بين يديه وادخلت النساء والاطفال بقوله اليها :

« الحمد لله الذي فضحكم وأكذب احدوثتكم . كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك . لقد شفي والله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك »

فمن خشونة هذه المعاملة لابناء الرسول وآل بيته (ص) تعلم درجة استبداد بني أمية ورجالهم الذين شهرتهم تغني عن الوصف طالما كانت مثلاً مضروباً . اذ استبدادهم الآخذ مأخذه من قلوبهم كان يدفعهم لمجرد الظن والقاء الشبهة على من اتهموه بالقتل من دون أن يراعوا فيها أحكام الدين والعدل .

أما الذين لم يستبدوا منهم كعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وغيرهما فقد استعملوا من يستبد ويفتك حفظاً على عرش بني أميه وتأييد سلطانه من العمال الذين حفظ لهم التاريخ أعظم تذكارات محزنة وأدهش وقائع دموية تسطرت كلها بقطرات دماء المسلمين فكم من نفوس أبية حرة قد قضوا عليها في هذا السبيل ؟

وهذا الاستبداد أيضاً ناشئ عن ذلك التغيير بنظام الخلافة . لانه لولا ظهور الثورات ووقوف العرب في وجوههم لتقويم الاعوجاج الذي وقع في شكل سلطانهم ؛ لما كانوا اقترفوا تلك الجنايات المريعة والفواجع المخيفة التي لايصفح لهم عنها التاريخ ولاتنساها الاجيال المقبلة . وقداختصرنا القول في ايضاح العوامل النفسية وما أنتجتها من الملمات والنكبات التي أدت ببني أميه إلى الزوال لان ذلك الانقراض كان منحصراً بأسرتهم وبعيداً عن الدولة العربية .

***

٢

دور الوقوف

كيف تأسست دولة بني العباس

— اسباب انقراضها —

كان عهد هشام الاموي آخر دور النهضة . ومن ذاك التاريخ وقفت الفتوحات عند حدها (١٢٥ هجرية) والتزمت الدولة العربية التوقف والجمود الى ان قتل الاتراك المتوكل على الله ووزيره الفتح بن خاقان . وقد اعتبرنا مقتله (٢٤٨) تاريخاً بدأ فيه دور السقوط وذلك لانه ، لا تأخذ الروح العسكرية في الانحطاط لدى امة الا ويكون محكوماً عليها بالسقوط .

ولم يكن مقتل المتوكل من قبل عساكره الا برهاناً واضحاً على انحطاط الروح العسكرية في دولة بني العباس .

***

قام أبو مسلم بالدعوة ونشرها في الاقاليم الاعجمية بين المجوس والنصارى والشيعه . فنجحت لان الاعاجم كانوا يكرهون بني أمية وكانت دولتهم عربية النزعة ثم أيدها المسيحيون لانهم غير

مبالين باساس الدين والدولة فاتبعه الشيعيون لانه وعدهم بأنه سيجعل الخليفة من العلويين. ولما كلف ابو مسلم الامام جعفر الصادق (أحد أحفاد النبي صلعم) لان تنسب الدعوة اليه ورفض قبول البيعة له. اضطر حينذاك ابو مسلم لمكاشفة السفاح العباس بذلك فقبل هذا بمل‌ء صدره وتم الامر له.

ولما اعتلى السفاح اريكة الملك وفتك بالامويين وتناول الطعام على جثثهم كانت هذه المقدمة مبدأ سلطنة ومبدأ انقراض. السلطنة كانت لبني العباس والانقراض كان للدولة العربية. لان روح هذه الدولة العباسية كانت اجنبية بحته وانصارها اغراب. فما أضعف دولة لا تستند على شعوبها، بل تأخذ قوة سلطانها من غيرها. وعلى الاخص ان انتصار هؤلاء لها كان امراً وقتياً لا يدوم. ولم يأخذوا بناصرها الا لمآربهم وتقوية نفوذهم عليها ليتسنى لهم عمل ما يريدون. لا حباً بمصلحة العرب.

وكان لابد من تأثير العادات والاخلاق الاجنبية فيها وعلى هذا لم يمض ردح من الزمن الا وظهر ذلك التاثير الاجنبي على الدولة بعد خمس سنوات باجلى مجاليه لما توفي السفاح وتولى بعده اخوه ابو جعفر عبد الله المنصور الذي نقل كرسي المملكة من دمشق العربية الى بغداد. فابتعدت الدولة

عن المحيط العربي .

اما السياسة التي كانت ترمي اليها بنو العباس باتخاذ بغداد عاصمة لها انما هو ناشئ عن اعتمادها على الاعاجم والتقرب الى الاحزاب المتشايعة والتي أيدت سلطانها ظناً منها بانهم سيكونون لها خير معوان مدى الزمان . فهذا هو الخطأ العظيم الواقع في المبدأ . غير انه قد تشعب هذا الخطأ اخيراً ودفع بني العباس لارتكاب عدة اغلاط سياسية فاحشة قضت على الدولة العربية . ومن هذه الاغلاط الفاضحة :

١ — اتخاذ بغداد عاصمة لهم واختلاطهم مع الاجانب

٢ — هذا الاختلاط هو الذي ادى بالعباسيين الى تسرب عقيدة الاعاجم . فمن ذلك بدأت روح الدين تتبدد شيئاً فشيئاً في الاقاليم غير العربية ومنها انتقلت الى الامة العربية

٣ — استبداد بني العباس في الامة العربية واحتقارها وازدرائها مع انها هي فاتحة البلاد ومؤسسة ملكها

٤ — ازدياد نفوذ الاعاجم والاجانب في الدولة وهذا سبل لهم الاستقلال واسرع في خراب الدولة

٥ — اضطرار بني العباس بعد ان أغضبت شعبها العربي

الخاص وثارت بوجهها الاجانب ان تتخذ جيشاً تركياً قتل ملوكها وأزال ملكها

٦ — اضاعة العصبية العربية التي كان من نتائجها ان الامة العربية لم تستفد شيئاً ما من الفتوحات والغزوات والعلوم والصنائع . فرجعت الى بداوتها ورعيها المواشي كما كانت عليه في العهد السابق (قبل الاسلام)

٧ — تعميم الاسراف والتبذير والبذخ وحب العظمة والظهور اضعف الوحدة الاسلامية وادى لانحلال عراها .

ان اخلاق الامم تؤثر على الدين ومن هذا التأثير نرى البون الشاسع بين عقائد العرب وعقائد غيرهم من الهنود والفرس والبربر والمغول .

وعلى الاخص انه كان في ذلك الزمن اعتناق الاعاجم دين الاسلام ظاهرياً لا باطناً حقيقياً والقلوب كانت مملوءة بحبهم لآلهتهم القدماء . حتى ان الوفد الذي اتى من خرسان واصفهان وراوند الي المنصور ثاني ملوك العباسيين سجد رئيسه اليه وخاطبه بالفاظ وتعابير يشم منها التأليه والربوبية . وهذا ما سبب امتعاض المنصور وسجنه اياه فكانت بنو العباس لا تحترم أئمة اهل السنة والجماعة كابي حنيفة النعمان وغيره لتمسكهم

بالامام جعفر الصادق وانحيازهم اليه . ففي عهد المنصور جلد الامام مالك حتى خلعت يده وبما كان الذميون متغلب على امرهم ؛ كانوا محتقرين وكان السواد الاعظم منهم يتذرع بالهداية الى الاسلام تملصاً من الجزية المضروبة عليه

وكان الافشين في عهد المعتصم العباسي يجلد علماء الاسلام لاتخاذهم احد المعابد المجوسية جامعاً . وكان محتفظاً بكتاب دينه القديم الذي كان يقرأ به كل يوم . وسئل الافشين في حضور المعتصم عن استمساكه بكتابه القديم فلم ينكر . بل كان يفاخر ويقول « قبلت كل شيء من هؤلاء الاعراب واكلت الزيتون (!) وركبت الابل ولبست النعال ولكن رفضت الاختتان . »

أما البلاد المحيطة ببغداد فقد كانت اجنبية في الجنس والدين فلم يجرأ أهلها على التظاهر برسوم اديانهم ومذاهبهم في عهد بني أمية وما ذلك الا لان دولة بني أمية كانت عابثة فيهم ولم يمكنهم التظاهر بعقيدتهم المكنونة في أعماق قلوبهم . وفي اوائل سلطنة بني العباس تجاسروا على التظاهر بعقائدهم وشعارهم فتغافلت الحكومة والدولة عن ذلك . فاخذتهم الجرأة ونمت الفكرة الجنسية فيهم وتغلب حب دينهم القديم عليهم بعد أن اعتلوا امكانة رفيعة في دولة بني العباس . فاول ما ظهرت فيهم العقيدة البوذية الهندية

والمجوسية الفارسية (الزردشتية)

فكانت عقيدة الزعيم بابك صاحب الدعوة البابكية هي عبارة عن مذهب مزيج بالتشيع والمجوسية . غير انها ادت ببني العباس وبابك الى حرب طاحنة دارت رحاها بينهما مدة عشرين سنة حتى ظفر الافشين في عهد المعتصم على بابك . ولكن كانت هذه الحرب الضروس زهاء ٢٥٠٠٠٠ من جنود بني العباس .

وهكذا فلما ادرك بنو العباس ضعف الدين في الاقاليم الاجنبية وخافوا من سرايته ونشره استعملوا الشدة الصارمة ضد كل ملحد واسسوا محكمة خاصة تقمع هذه الروح الفاسدة في الاسلام ودامت هذه المحكمة حتى عهد الرشيد .

ولكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية كبح جماح هذه المعتقدات الباطلة لم تجدهم نفعاً بل كان لابد لهذه الفكرة السامة من سرعة السريان في نفوس بني العباس لقربهم الى ينابيعها لان الوزراء والقواد والحجاب والخدام والجواري والندماء والجيوش كلهم كانوا من هذه الامم الاجنبية .

فلهذا ظهرت فكرة الاعاجم بعد الرشيد في المأمون الذي نصره اخواله الايرانيون . فما كان منه اذ تولى السلطنة الا ان قال بخلق القرآن وتفضيل الامام علي على الخلفاء الراشدين

وهنا نذكر كتاب ارسله الى قاضي القضاة يقول فيه :
« بلغني ما اجاب متصنعة اهل القبلة (!) فمن لم يجب بأن »
القرآن مخلوقاً فامنعه من الفتوى والرواية .... »
« فاما ماقال بشر ؛ فقد كذب . فادع به اليك فان تاب »
« فاشهر امره وان أصر على شركه ودفع ان يكون القرآن »
« مخلوقاً بكفره والحاده فاضرب عنقه وابعث الينا برأسه . وكذلك »
« ابراهيم بن المهدى ، فامتحنه فأن اجاب دعه والا فاضرب عنقه »

وقد جاء المعتصم بعده وحذا حذوه وختم عمره بامتحان الناس بخلق القرآن فكتب الى الولاة والقضاة عن ذلك وامر المعلمين ان يعلموا الصبيان في المدارس ويغرسوا في عقولهم تلك الفكرة (خلق القرآن) .

ونال الناس من مظالمه ما جعلهم يذوقون الامرين وقتل خلقاً كثيراً من العلماء وكان الافشين المجوسي في عهده صاحب الكلمة النافذة والمقام الرفيع فجاء بكاهن مجوسي وجعل له موقعاً في البلاط الملكي العباسي وهو الذي جلد الامام احمد بن حنبل لكونه لم يعترف بخلق القرآن .

واعقبه ابنه الواثق فاتبع اباه وارسل سنة ٢٣١ كتابه الى امير البصره يامره بان يمتحن الناس والمؤذنين والعلماء والفقهاء

ومأموري الدولة بخلق القرآن . واحضر من بغداد الى سامرا . الشيخ احمد بن نصر الخزاعي احد علماء اهل السنة والجماعة مقيداً مهاناً وسأله عن القرآن فقال ليس بمخلوق فأمر بالنطع واجلسه عليه وهو مقيد وضرب عنقه بيده . واشهر رأسه في بغداد وصلب جثته بسامرا . وبقيت مصلوبة ست سنين .

ولما أراد تخليص الاسراء العرب من أيدي الروم فدى من قال بخلق القرآن واحسن اليه وترك من امتنع في الاسر .

وجاء المتوكل بعده وهدم قبر الحسين وماحوله من المنازل فجعلها مزارع وحرثها ليخفي مكان الضريح عن الناس الذين منعهم عن زيارته .

اما هذه الاعمال المستمدة من روح الاعاجم فانها لم تجد بني العباس سوى مقت الشعب العربي لهم كما انها كانت سبباً لضعف اهل السنة والجماعة العربية النزعة وتقوية سلطان الاعاجم عليهم وهكذا قد كانت من نتائج سرايتها الزندقة في ملوك بني العباس واجبار الناس على قبولها قهراً وقد فسحت مجالا واسعاً للاعجام واغمت دينهم القديم تحت مظاهر الاسلام حيث كانت اسلاميتهم لفظية وظاهرية وكانت معابد (النوبهار) المجوسية موجودة في كل قرية يوقد فيها النيران وتعبدها الاعاجم الى القرن السادس للهجرة .

واما امزجتهم واخلاقهم السياسية والاجتماعية والدينية فقد كانت مساعدة لان تؤثر على تغيير شكل الدين .

واذا اضفنا الى هذا التغيير المقاصد الاستقلالية القومية الكامنة في صدور الامم الاجنبية فيظهر لنا جلياً اسباب ثورة (البابكية)و(الديالمه)و (والقرامطه) والخوارج على اختلاف نحلهم . غير اننا نقتصر على ذكر مايأتي :

لم يكن العامل الحقيقي في قيام صاحب الزنج الذي احتل البصرة وتوابعها وفتكه بالناس فيها الا اثارة الروح الاجنبية . ويقال انه قضى على حياة ٣٠٠٠٠٠ نفس في يوم واحد في البصره ومجمل ماقتله من العرب يربو عن المليون أما الاختلافات الدينية فلم تنحصر في الاقوام الاجنبية فقط بل تجاوزتها الى الامة العربية وانتجت ظهور الشيع في العرب وهذا ما الجأ هؤلاء بالاتفاق مع الاعاجم ضد العباسيين الذين جاروا عليهم .

وفي سنة ٨٢٦ ظهر بالبحرين ابو سعيد القرمطي واشتدت شكيمته واستولى على البصرة . وفي خلال هذه السنة ايضاً خرج يحي بن زكريا القرمطي ولما قتل قام اخوه الحسين من بعده واستمر القتال بينه وبين جنود بني العباس .

وكانت عقيدة القرامطـة مزيجاً من المجوسية والتشيع ومن جملة اعتقاداتهم :

أولا — لاغسل في الجنابة

ثانياً — الخمر حلال

ثالثاً — في اذانهم (محمد بن الحنفيـة رسول الله)

رابعاً — الصوم في السنة يومان فقط (١) يوم النيروز (٢) يوم المهرجان .

خامساً — القبلة والحج في بيت المقدس

ومن هنا ترى أن الامم والاحزاب الدينية التي نصرت بني العباس وأجلستهم على أريكة الملك ، عادت ناقمة عليهم وعلى دولتهم .

فالعلويون عام ٢٧٠ استولوا على أفريقية ومصر . والخوارج استقلوا في الشمال بين بحري الاسود والخزر واستتب لهم الامر بطبرستان .

وكان من نتائج الاختلافات المذهبية التي فسحوا لها مجالاً بايديهم ، أن انقسمت دولة بني العباس إلى أقسام مختلفة . منهم (١) الانـدلس السنية (٢) أفريقية العبيدية الفاطمية الشيعية (٣) طبرستان الخارجية (٤) خراسان الشيعية .

من قبل المتوكل . لانه سأله :

من احب اليك ولداي ام الحسن والحسين (رض) فلم يقل له ولداك فامر حاشيته ان يقتلوه دوساً تحت اقدامهم

واما المظالم التي اقترفوها في اهل السنة والجماعة فقد سبق ذكرها .

ان الاخلاق التي جعلتهم يستبدون ليست الا مستمدة من روح محيطهم القاسي فكانت مقدمة افعال القاهر بالله مصادرة اموال آل المقتدر وتعذيب نسائه واطفاله وضرب امه (ام الملك العباسي المقدر بالله) حتى ماتت ضحية للعذاب والتعذيب

وقد سولت له نفسه ان يضع ابن المكتفي بالله بين جدارين وطينهما عليه خوفاً من ان تعقد له البيعة

اما القاهر بالله فقد القى باسحق بن اسماعيل في بئر سدها عليه لانه زايده قبل ارتقائه عرش السلطنة في مشترى جارية .

٭٭٭

حلول الاجانب

كان من أسوأ نتائج الاعتماد على أمم أجنبية ونقل العاصمة الى قربها وجوارها أن احتلت الدولة إحتلالاً سلمياً من قبل التابع للمتبوع . فلمجرد اختلاط الاعاجم بالعرب وحلولهم بينهم ، كانت فاتحة أعمال السفاح . ان استوزر خالداً بن برمك بن جاماس بن بشتاسف الذي كان أبوه برمك مجوسياً من بلخ اشتهر هو وبنوه بسدانة (النوبهار) وهو معبد للمجوس توقد فيه النيران . وقدم مواليه الغريبة على العرب . فكانه بعمله هذا كان يتملص من العصبية العربية ويحتقرها حتى اشمأزت نفوس العرب وانكسرت قلوبهم منه . وأخذ نفوذ الاجانب من ذلك الحين يتأيد شيئاً فشيئاً في الدولة حتى وصل بهم الى أن قضوا على سلطانها . وناظروا بثروتهم الطائلة الرشيد باحسانه ونفوذه وسيطرته

وهذا ، دعى جعفر ابن يحى البرمكي بالسلطان أيام الرشيد رمزاً الى سطوته ونفوذه السائد في جميع أمور الدولة .

ويقال أن مورده السنوي كان يبلغ عشرين مليونـاً من الدنانير .

وقد كان أعظم رجـال الدولة في أيام العباسيين من الفرس والموالي على اختلاف أجناسهم كالبرامكة وآل الربيع وآل سهيل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات وآل الخصيب وآل طـاهر وغيرهم . وقد قال أحد ملوك بني العباس لقد ملكنـا مئة عام فلم نستغن عن الاعاجم يوماً واحداً . وملكوا آلاف السنين فلم يحتاجوا الينا يوماً واحداً

وقام المعتصم وتحول من بغداد وبنى سامرا لجيوشه التركية واعتنى باقتناء الترك والعجم فبعث الى سمرقند وفرغانة وجاب اليه الوفاً منهم . وبلغت غلمان المعتصم بضعة عشر آلاف وحيث ان امور الحكومة كانت بايديهم فكانوا ايولون عمالاً أعجميين ويعملون سراً على استقلال بلادهم وخروجها من أيدي العباسيين فما شعر بهذه المؤامرات الخفية والنيات الكامنة الا الرشيد .

فأباد عندئذ البرامكة خوفاً من سطوتهم واستفحال أمرهم إلى الخروج عن طاعته . ولكن هذا الفتك لم يثمر ولم يجد نفعاً طويلاً . لان روح الثورة تأصلت في نفوس الامم المختلفة فيها . بينما كانت أخلاق الاجانب قد أخذت بالسراية إلى الاسرة العباسية

نفسها . ولما مات الرشيد تصارعت القوتان : روح العصبية العربية في الامين والفارسية في المأمون . فانتصرت الفارسية طبعاً لان الروح والسلطان العربي كانا قدماتا من أمد طويل وقتل الامين أبن زبيدة الهاشمية مع العصبية العربية بعد الرشيد .

وقد ظهر الضعف السياسي والاخلاقي والديني في المأمون بعد ان تم له الملك . حتى انه ترك السلطنة من بعده لعلي الرضا نجل الامام جعفر ولبس الاخضر ومنع الاسود شعار العباسيين .

ومن ثم أصبحت الدولة بعد ذلك أعجمية بكل معانيها . وتقاطر المرتزقون والمحترفون والمستجدون من أطراف البلاد وفيهم (العربي (و (النبطي) و (الفارسي) و (الخراساني) و (التركي) و (السندي) و (الهندي) و (الكردي) و (القبطي) و (الأرمني) و (الشركسي) و (الكرجي) و (اليوناني) و (البربري) و (النوبي) و (الاسباني) و (البورتغالي) و (الصقلبي) و (الزنجي) .

وهكذا كانت عاصمة الدولة العربية عبارة عن معرض للاقوام والجنسيات . وازدادت شوكة الاجانب حتى انتقلت السلطنة وزمام الملك من أيدي بني العباس إلى أيدي الوزراء والقواد حتى كان ملوك بني العباس يستخلفون هؤلاء على السلطنة

ولما تولى أولئك الاجانب زمام الملك ساعدوا أممهم على الاستقلال وتركوا لبني العباس من السلطنة الظل والخيال أي الخطبة واسم الخلافة .

وكان من شدة نفوذهم واعتلاء كلمتهم في الدولة حتى في دور الرشيد أنه كان قد ذهب عبد الملك بن صالح الهاشمي إلى جعفر البرمكي وزير الرشيد وقال له :

— أن في قلب أمير المؤمنين موجدة فهل لك بان تخرجها من قلبه وان تعيد الي رأيه فيّ .

— قال جعفر ؛ رضى عنك أمير المؤمنين وزال ما ظنّه فيك

— فقال عبد الملك وعلي ٤٠٠٠٠٠ درهم

قال جعفر ؛ تقضى عنك وهي لحاضرة

فقال عبد الملك ، وابراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة

— قال جعفر ، زوجه أمير المؤمنين (العاليه) ابنته

· فقال عبد الملك = وأرجو ان يخصه بمنصب يليق به

-- قال جعفر قد ولاه أمير المؤمنين مصراً

وقد نفذ هارون الرشيد جميع ماوعده البرمكي فانظروتأمل!

وافظع حال من هذه الحالات انه لما قتل رجل من اعوان

الموالي الاعاجم ببغداد هاجت الاعاجم لذلك وبعث الوزير ابو الفضل الشيرازي رجاله واضرموا النار في الاسواق والشوارع فاحترقت الاسواق واموال الناس مع خلق كثير من الاهلين والابرياء الذين كانوا في المنازل والحمامات . وكان من نفوذ الاتراك ان استولوا على الحكم والسلطنة واخذوها من ايدى بني العباس واصبح ملوكهم اقل نفوذاً من آحاد الناس . وسملوا عيني الملك العباس القاهر الذى كان يقول وهو واقف وقفة المتسول على ابواب الجوامع بعد اداة صلاة الجمعة لما خرج الناس منادياً :

تصدقوا عليّ فانا من قد عرفتم .

وصادر السلطان (بختيار) اموال المطيع لله فقال له انا ليس لي غير الخطبة فان اجبتم اعتزلت فلم يلتفت لقوله وشدد عليه النكير وباع امواله وتركه في اسوأ حال

ولما ذهب المطيع لله لدار معز الدولة وزيره «؟» يعزيه بوفاة شقيقته لم يدعه للصعود الى منزله .

ولما تولى المستكفي بالله الملك ؟ خلع على احمد بن بويه (ابن صياد سمك) ولقبه بمعز الدولة وضرب اسمه على السكة . فما كان منه الا ان تألب على المستكفي وحجر عليه وامتلك العراق والديلم واذا به قد دخل ذات يوم عليه والناس وقوف

على مراتبهم بين يديه وتقدم اثنان من رجاله الى المستكفي فلما تقربا اليه مد يده اليهما ظاناً بأنهما يريدان تقبيلها فجذباه بها من سرير السلطنة وطرحاه على الارض وجراه بعمامته وهجم رجاله على داره وحرمه ونهبوهما وساقوا الملك العباسي ماشياً الى دار معز الدولة الذي احسن اليه

***

الجيش الاجنبي

ان العباسيين قاموا لنصرة العلويين ولذلك اجتمع حولهم كافة الاحزاب الشيعية والعجمية ولما انتصروا حلوا مكانهم واخذوا الملك لانفسهم وجعلوا قاعدة سلطانهم الاعاجم واحتقروا الروح العربية وعصبيتها الى ان نقمتا عليهم

ولكن لم يلبثوا طويلا حتى قامت الاعاجم واتفقت مع الاحزاب العلوية . وعلى الاخص بعد مقتل ابي مسلم الخراساني نفرت الاعاجم من بني العباس ونادت باخذ ثاره . فمن جراء هذا اضاع العباسيون العنصرين : العربي والفارسي

فاضطروا حينذاك لتشكيل جيوش اجنبية لانه لم يكن لهم نصير من تينك الامتين فباشروا بتنظيم جنود من الاتراك والبرابرة

وكما ان الوزراء والعمال كانوا يجتذبون لانفسهم رجالا ينفقون عليهم من اموالهم فيستخدمونهم لغاياتهم الشخصية وكانت هذه العساكر الخصوصية تسمى باسماء موءسسيها حتى

اذا مات احد انتقلت تلك العساكر الى سلطة غيره مثل الساجية والنازوكية والهارونية والبيلغية . وهي مؤلفة من من الاتراك والبربر والاحباش والاكراد والفرس

اما المقصود من تأسيس هذه الجنود السلطانية والخصوصية وانفاق الملايين عليهما فقد كان حفظاً لسلامة الدولة وملوكها من كل طارىء ولكن هذه الجموع المجردة من كل شعور قومي وحب وطني ، ما لبثت محافظة على الغاية التي تتوخاها اكثر من مئة عام حتى فسدت واصبحت تقتل الملوك وتخلعهم وتسمل عيونهم مندفعة من قبل اولياء العهد الطامحين باريكة السلطنة وتحزبت من جراء ذلك الرؤساء والقواد وبتحزبهم انقسمت العساكر الى اقسام مختلفة كل قسم استماله وزير او قائد حتى امست تلك العساكر ؛ عساكر الزعماء والرؤساء ، لا عساكر الحكومة والسلطان .

وبذلك كانت هذه الجيوش سبباً لانقراض الدولة لافرق بينها وبين الانكشارية العثمانية والامبراطورية الرومانية وقد ظهر هذا الفساد — فساد الجيش — في عهد المتوكل وقام الجيش برأي ابنه المنتصر على المتوكل وهجم عليه ليلا فقتله مع وزيره الفتح بن خاقان وولى مكانه ابنه المنتصر . ثم سمم المنتصر

لتماديه عليه بالعدوان . وعندما مات المنتصر مسموماً اجتمع قواد الاتراك الذين سموه واتفقوا على تولية المستعين ابن المعتصم لان المعتصم كان يحب الاتراك كثيراً حتى كانوا من شغافهم به يلقبونه (باستاذ الاتراك)

ولما جلس هذا على كرسي السلطنة قتل القائدين التركيين (وصيف) و (بغى) قتلة المتوكل . فغضب الاتراك واضمروا له السوء وتآمروا عليه . فاوجس خيفة منهم وهرع هارباً الى بغداد

فاخرجوا بعد ذلك المعتز من سجنه وبايعوه وخلعوا المستعين ولما استطاعوا القاء القبض عليه ذبحوه ذبح النعاج . ولما تولى المعتز مات (آشناس) التركي الذي كان استخلفه الواثق على السلطنة وخلف نصف مليون دينار

وخلع المعتز بعد وفاة (آشناس) خلعة الملك على محمد بن عبد الله بن طاهر وقلده بسيفين . وكان المعتز ناقماً على الاتراك فطلبوا منه مرتباتهم فأمهلهم . فغضبوا وهجموا عليه وجروه من رجله وضربوه بالدبابيس واوقفوه في ساحة النهار في يوم حار وهم يلطمونه ويصفعونه لاكراهه على التنازل عن الملك واميت عطشاً .

وتولى من بعده المهتدي ومع كونه كان ورعاً زاهدا

ومقتصداً عادلا فانه لم يسلم من شر هذه الجيوش التي كانت قابضة على زمام الملك فهجموا عليه وهو جالس في دار السلطنة وانتهبوا قصره وقتلوه شر قتلة من خصيتيه

ولا حاجة بنا الى تعداد الوقائع التاريخية لانها مدونة مفصلة في مجلداتها الخاصة وان الوقائع التى احصيناها وسردناها كافية لاثبات الحجة القائلة بان هذه الجنود الاجنبية المجردة عن الحب الوطني والشعور القومي هي التي كانت سبباً عظيما لتشتيت شمل الدولة والفتك بملوكها

فالعباسيون هم المسؤلون ازاء التاريخ والحق عن ضياع الاستقلال العربي والملك الشاسع اكثر من تبعة بني امية لان بني امية عملت على اضمحلال افراد عائلتها . ولكنها انقرضت تركت لبني العباس دولة عربية عظيمة تمتد شرقاً الى صحاري الصين وغرباً الى بحر الظلمات (المحيط الاطلاسي) وشمالاً الى بلاد الصقالبة (روسيا) . فما كان من سوء ادارة بني العباس الا ان محوا هذه البلاد بارتكابهم افضح الاغلاط السياسية وهكذا تدرجوا من غلط الى اغلاط كثيرة

وما تتبعوا هذه السيرة الا طمعاً ببقاء سلطانهم من غير ان يفكروا في مستقبل الدولة

ومع هـذا فقد كانوا مقتنعين به ضاربين الصفح عن غيره • والعمل على ما فيه نهوض المملكة العباسية من وهدة الذل والانحطاط الى اجتماع كلمة العرب على وجه يعود بالفائدة المطلوبة التي لم يكن يتسنى لهم بدونها البتة المحافظة على مجموع الامـة العربية : وهذه الروح التي كانت تخالج ملوك بني العباس فانها لم تزل الى اليوم سائدة في نفوس بعض ملوك الجزيرة وامرائها ومتأصلة فيها • وهي التي حملتنا على تشريح التاريخ الذي نحن بصدده لنضع امـام اعينهم نتائج هذه المطـامح ونثبت لهم بانهم سيضيعون باعمالهم ومطامعهم هذه استقـلال بلادهم وسلطانهم الشخصي معاً • وهكذا يجرون على الامة من جراء مطامعهم الويل والخسران والضعف والشنآن •

***

ابادة العصبية

كان الامويون ذوي عصبية عربية ومع توغل جنودهم ورؤسائهم وقوادهم في بلاد فارس وتركستان ومصر وافريقية والاندلس فانهم لم يختلطوا باهليها ولم يقتبسوا من تقاليدهم وعوائدهم وعقائدهم شيئاً . بل كانوا محافظين على قوميتهم وتقاليدهم الملية كما يفعل البريطانيون اليوم في جميع مستملكاتهم ومستعمراتهم حرصاً على تقاليدهم «انسكسونية»

اما العباسيون فنظراً لتغلبهم على امر بني امية بالموالي واهل الذمة والاعاجم فقد اتخذوا لهم وسط اشياعهم واحزابهم مقراً لهم ولمملكتهم

١ – لقد نتج من جراء ذلك ان ابتعدت العاصمة العربية عن مركز العرب .

٢ – نظراً لتقرب الفرس منهم واتخاذهم الوزراء والعمال ورجال الدولة كلها منهم اصبحت الحكومة غير عربية

٣ — تنظمت دواوين الدولة على اصول ما كانت عليه الدولة الساسانية المنقرضة . فتغير بذلك شكل الادارة العربية ايضاً

٤ — كانت ملوك بني العباس تعمل على التباعد عن العصبية العربية حتى ان المنصور (ثاني ملوكهم) بنى القبة الخضراء في بغداد ليصرف اليها اذهان الناس عن الكعبة

فكأنهم بهذا كانوا يقاتلون الروح العربية ويتقربون الى الاجانب . بعكس ما كانت تعمل عليه بنو امية . لان دولة بني امية كانت عربية النزعة وجميع قوادها وعمالها من العرب لا من غيرهم .

والسيادة فيها للعنصر العربي لا لغيره ايضاً

لذلك لما انقرضت سلالة بني امية لم يتحيف الدولة العربية اقل حظ لانحصار الانقراض في الاسرة المالكة لا في الدولة .

وقد كان العكس بالعكس في بني العباس ؛ لان الدولة انقرضت والاسرة المالكة بقيت الى عهد السلطان سليم الاول العثماني .

فكان اخر خليفة عباسي المتوكل على الله الذي تنازل عن الخلافة للعثمانيين ومات سنة ٩٥٠ هجرية

اما الاسباب القاضية على دولة العباسيين فانما هي ناتجة عن ان :

١ — وزرائها كانت من الفرس

٢ — جيوشها من الاتراك

٣ — نظامها كان فارسي الاصل

بنوع انها كانت عارية من كل صنيعة عربية

لهذا لم تكن نتيجة هذا الامتزاج الغير الطبيعي سوى طرد النفوذ العربي وابادة العصبية الملية

وبعكسه قد نمت العصبية العجمية واحتلت مكان الروح العربيه .

ولا عجب ان نرى الدولة العربية قد انقرضت بعد قرن وربع فان العجب كل العجب فيها كيف انها حافظت على استقلالها في خلال هذه المدة

لذلك لما انقرضت دولة بني العباس وزال نفوذهم بقى اصحابها خلواً من القوة والنفوذ وتسلط عليهم الاتراك وبقوا تحت رحمتهم تارة يقتلونهم وتارة يسملون عيونهم ويخلونهم

مرة وينهبون قصورهم اخرى

لانهم قد اضاعوا العنصرين العربي والعجمي معاً ولم يبق لهم مرجع يأوون اليه

فالامة العربية كانت تنفر منهم لاحتقارهم لها والعجمية كانت تزاحمهم على الملك وتطاردهم عنه

فاضمحلت اسرة العباسيين رويداً رويداً حتى لم يبق لها ولدولتها سوى الذكر في التاريخ

على انه لو ابقى بنو العباس عاصمتهم في دمشق المحاطة بالروح العربية واستمالوا اليهم امتهم الحقيقية بعد مقتل جميع افراد بني امية حيث كان لم يبق منهم فرد يخشون بأسه لطال امد سلطانهم و كانت الامة العربية كونت امة تاريخية عظيمة اعظم مما هي عليه الان .

ولماذا ؟ .. لان عناصر اكثر الامم الغربية ليست من جنس واحد في الاصل . بل هي خليط ممتزج من اجناس مختلفة وحدته الحوادث والحروب والوقائع . حتى لم يبق اثر لتلك القوميات الاصلية القديمة .

فلهذا نرى النتيجة الباعثة على استقلال الاقوام والعناصر في الدولة العربية العباسية ؟ هي طبيعية

لأنه كان من المستحيل ان يمتزج العنصر الفارسي والتركي والعربي والهندي والتتري بمدة قرنين ونصف تمكن فيها بنو امية وبنو العباس من بسط سلطان الروح العربية ومع هذا فان العباسيين لم يعملوا على تعريب هذه الاقوام في عهد سلطنتهم بل مهدوا لهم سبل الاستقلال والارتداد

وكان من نتائج سياسة العباسيين من وراء ابادة العصبية الملية ، ان الامة العربية لم تستفد شيئاً من الفتوحات والغزوات والغنائم والثروات الطائلة والاحجار النفيسة والدرر اليتيمة والتيجان المرصعة التي اغتنمتها في اثناء حروبها، بل عادت مهرولة الى الدور الذي خرجت منه ورجعت اليه الا وهو :

« دور الرعي » تاركة ورائها كل هذه النفائس لاعدائها الالداء .

لعمر الحق لو لم تقم زبيدة العربية النبيلة التي هاجت رئح عصبيتها في صدرها وتحركت عوامل الوطنية في قلبها وساقتها الى جر مياه الفرات الى بيت الكعبة المطهرة (وطن اسرتها الهاشمية) لكان اهل مكة والحجاج معاً يموتون اليوم عطشاً

وهنا نبرز ما كان يخالج نساء العرب وروح عصبيتهن من نبالة الوطنية والعواطف الملية التي يحق لها ان تكون نموذجاً

شريفاً لاولئك الملوك الذين كانوا يقترنون ببنات الاتراك والاعجام فيولدون منهم ملوكاً لعرش الامة العربية — خامرتهم الروح الاجنبية وتنصلت منهم العواطف القومية باسرها

انما الناس بالملوك وهل يفلح عرب ملوكها عجم

« المتنبي »

* * *

الاسراف والتبذير

السخاء عربي ، والاسراف عجمي . والفرق بينهما كامن في الغاية والمقصود

فالغاية من السخاء العربي ؛ هي تقوية اللغة العربية بنشر ادبياتها وفصاحتها وبلاغتها . وهذا طرز خاص للعرب كان قبل الطباعة للتعليم والتعلم وترقية النظم وتشجيع اهله عليه

وكان امراء العرب ومثروها يحسنون للشعراء ايضاً بقصد نشر دعوتهم السياسية لان الشعر كان بمنزلة الجرائد في عصرنا هذا ينتشر كالبرق ويؤثر كالكهرباء

وهكذا كان شأن الامويين الذين كانوا يحسنون للادباء والشعراء لا سيما معاوية منهم طلباً لنشر دعوته السياسية وحث الامة على محبته

ولكن سخاء بني العباس كان بعيداً عن الفكرة والروح العربية . متبعاً للاخلاق الكسروية المتألهة والمبذرة

فلما اقترب بنو العباس من الاعاجم وجعلوا من حولهم

منهم اخذت روح الاسراف تنمو فيهم وتسري سرياناً غريباً في الواقع

واول وزير عجمي في دول العرب كان خالدا بن برمك فهو الذي بذر بزرة البذخ والاسراف في نفس المنصور ورغبه فيها .

ومع ان الثروة لم تكن نضجت بعد في ايام المنصور فانه اجاز شاعراً بعشرة الاف درهم على كل بيت امتدحه فيه

ثم من بعده اجاز المهدي مروان ٢٦٠٠٠٠ درهما وقد اعطى الهادي لصاحب شرطة ابيه ٤٠٠ حمل بغل موقرة دراهم

واما في زمن الرشيد فكانت قد سرت هذه الروح في عروق ودماء بني العباس . فان الرشيد نموذج بليغ للاسراف . مع انه اظهر الحزم والتبصر بالعواقب وهو اول من فكر في العصبية العربية وفتك بالبرامكة على انه لو فكر في تبديل العاصمة ونقلها الى وسط عربي لكان اعظم العظماء في العرب

ولا يمكن الانتقاد على هذا الملك الكبير الا باسرافه . فانه ابتاع جارية بمئة الف دينار واخرى بستين الفاً . وفرق في يوم واحد زهاء مليون ونصف من الدنانير ونثر يوماً اثناء طربه ستة ملايين من الدراهم . وكان لا يقل احسانه عن ١٠٠٠٠٠ درهم .

ولم ينحصر الاسراف في الرشيد ؛ بل تجاوزه الى اسرته

ورجال بلاطه . فلما امتدح سليم الخار الامين حشت فاه امه زبيدة جوهراً باعه بعشرين الف دينار

وكان يحيى بن جعفر البرمكي وزيره الكبير يجاريه في العطاء والاسراف وكان في ابان سلطنة الرشيد ايراد الدولة « ٧٥٠٠ » قنطاراً من الذهب

وخلف الرشيد من الثروة مئة مليون دينار ومن الجواهر والاثاث ما تزيد قيمته عن هذا المقدار

ولما تولى الامين وجه الى البلدان في طلب الملهين واجرى لهم المعاشات الباهظه وبعثر ما في بيوت المال وضيع الجواهر الثمينة . واشترى جارية بعشرين مليون دينار ! واعطى سليمان بن ابي جعفر مليون درهم ويقال انه اجاز من غنى له هذا البيت بملء زورته ذهباً .

هجرتك حتى قلت لا يعرف القدر

وزرتك حتى قلت ليس له صبر

ولا نعلم صدق ما رواه لنا المؤرخون القدماء فان هذه الاحوال تدل على الجنون المطبق

نعم ان اخلاق بني العباس قد فسدت . ولا يستبعد منها

كل تبذير وسفاهة . ولكن المقادير التي ذكرها لنا المؤرخون هي باهظة يكاد العقل يستبعدها ويستنكرها

والمأمون كان سر أبيه بالاسراف . فلما تزوج (بوران) بلغ نفقة احتفالها ستين مليون درهم (٦٠،٠٠٠،٠٠٠) وأعطاها الف حصاة من الياقوت الثمين .

وقام ابوها ونثر على الحاضرين في الوليمة رقاعاً مكتوب عليها اسامي ضياع ومزارع وجواري وخيول ، وكان كل من حظى برقعة يأخذ ماهو مكتاب عليها ويستلمه .

ونثرت عن المأمون جدة (بوران) الف دره ، واوقد شموع العنبر وبسط لها فرشاً منسوجة بالذهب ومكالة بالجواهر والدر والياقوت .

واحرق بدار الطبخ من الحطب ليلة الوليمة ١٥٣،٠٠٠ حمل بغل واعد ثلاثين الف سفينة لنقل المدعوين .

وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم . وفرق في ساعة من الزمن ستة وعشرين مليون درهماً

ومدحه اعرابي فاجازه بثلاثين الف دينار .

والمعتصم لم يكن أقل من أخيه وكان يصرف يومياً الف دينار في مطبخه .

وقد ظهرت فيه الطبائع والاخلاق الكسروية وتأثير الوزراء الاعاجم تماماً وتشبه بملوك الاكاسرة وقلدهم والبس الغلمان والجواري والخدم انواع الديباج ومناطق الذهب

فمن هنا يظهر لنا ؛ ان روح الحكومة العربية قد تعجمت ومات الخلق العربي البسيط الطاهر . وأصبحت دولة بني العباس العربية ؛ دولة قيصر و كسرى ؛ الذي ندد بهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه وخاف من تأثيرهما ووبخ معاوية بخصوصهما

فلعمري لو صرفت هذه الاموال التي يعجز القلم عن احصائها في سبيل عمار الجزيرة العربية وجر مياه الفرات بجداول صناعية لاصبحت اليوم أخصب البلاد واغنى الاقاليم واعمر الممالك . وكانت هذه البلاد العامرة مأوي لبني العباس الذين أصبحوا طريدة شريدة لجيوشهم .

فياللاسف ، ان بني العباس قد أضرت بنفسها وبالامة معها . حاربت الفكرة العصبية وبددت شملها وأيدت الاعاجم وجمعت كلمتهم عليها . بينما كان لاجامعة تجمعهم بها ولا صلة تصلهم

وبينما كانت روح العربية الاسلامية تعرب الامم المسيطرة عليها بانظمة وقوانين مدنية خاصة لها اصبحت روح الاعاجم

تعجم الروح العربية في عهد العباسيين . والسبب في ذلك ان الفساد الاخلاقي الساساني كان قد سرى فيهم وجعلهم اكاسرة جالسين على عرش الخلافة ، لا خلفاء وامراء للمسلمين .

لان امراء المؤمنين وخلفاء العرب المسلمين ، كانوا يرقعون اثوابهم ويركبون الابل ويلبسون النعال ويعلقون سيوفهم بالليف لا بالحرير المزركش . ويبتعدون عن التظاهر والفخفخة كانها جرب سار . وأبوابهم مفتوحة لكل مظلوم يطرقها . وكانوا يطوفون في الشوارع ليلاً كالحراس . ولم يقيموا حجاباً تحجب عنهم الرعية .

لان مبتدعات الامة هي مستمده من روحها وروح الامة العربية البسيطة هي التي ابتدعت في خلفاءها هذه الفضائل الشعبية (ده موقراطية)

فان بني العباس أخذوا ينتزعون هذه الروح فقلدوا القياصرة والاكاسرة والامبراطرة بالزخارف والمواكب واقتنوا الاسرة الذهبية المرصعة بالجواهر أو الابنوس المنزل بالعاج . واتخذوا الكراسي والنمارق والمقاعد ونصبوا منائر الذهب واوقدوا الشموع من العنبر وعلقوا الستور المطرزة والموشاة .

وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت . وغالوا من اقتناء آنية الذهب والفضة ؛ حتى اخذهم حب الظهور وجذبهم التكبر والغرور وسقطوا الى مهاوي اخلاق الامم المنقرضة والفاسدة . فكان اذا ركب الملك العباس مشت الرجاء بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والرماح العوالي .

فاتخذ الرشيد خدماً صغاراً يسمونهم النمل . يتقدمونه وبايديهم البنادق يرمون بها من يعارضه في الطريق من الناس

وكان بنو العباس يخرجون على الخيول أو في القباب وحولهم الاعوان ركوباً والشرطة مشاة . وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم ، يلبسون مناطق الذهب ويحملون المقارع والطبرزينات المحلاة بالذهب

ويقف الجند في الطريق صفين . يسير الموكب بينهما . ويبلغ احياناً طول الموكب اربعة أميال

وهكذا استسلم بنو العباس للفرس واختمروا على فساد اخلاقهم قلدوهم بالالبسة والزي .وجعلوا ذلك بامر رسمي منذ أوائل دولتهم . فامر المنصور سنة ١٥٣ هجرية أي يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة بدل العمائم العربية وأن يعلقوا السيوف

في أوساطهم ٠

فاذا انعمنا النظر فيما تقدم ، شاهدنا العوامل النفسية التي أماتت الاستقلال العربي وأبادت ملوكه وشتتت شمل أمته ، كما اننا سنشاهد في الفصل الثاني الذي سنخوض غماره كيف تبعث الامم بعد موتها ٠

٭٭٭

الفصل الثاني

البعث بعد الموت

لما تقرر الحق للامم وحدها ان تحكم نفسها بنفسها — بعد الثورة الفرنساوية — نجم منه حق آخر للامم :

١ — ان لا يحكمها الاجانب

٢ — أن لا تضم الى امة أجنبية غيرها

٣ — ان لاتتجزأ بين حكومات شتى

وذلك لان من الحقوق الانسانية السياسية ان تكون كل أمة مملكة مستقلة بنفسها وأن تنضم اليها كل اجزاءها وهكذا تتألف منها دولة واحدة مستقلة .

وهذا هو المبدأ الذي بعث أمماً مختلفة بعد موتها السياسي. انتشر هذا المبدأ (مبدأ الجنسيات) وكان تأثيره أسرع من البرق واعتنقه الوطنيون على اختلاف جنسيتهم في جميع الممالك وهاجوا على الحكومات التي كانت اغتصبت بلادهم بعد ما

قضت على كيانها .

واخذوا يبـذلون النفس والنفيس في سبيل الانسلاخ والاستقلال . وثارت الاقطار من تأثير هذه الحركة الوطنية على الامم الحاكمة فقامت ايرلانده تطلب استقلالها من انكلترا وبولونيا تعمل على استرجاع سلطانهـا من روسيا والبلجيك من هولانده وفيها السرب واليونان ورومانيا والبلغار ثاروا بوجه الدولة العثمانية لتحرير بلادهم وشعوبهم . وانتعشت أقاليم المجر وبوهميـا ولومبارديا وخرداتيا وسعوا للتخلص من ربقة النمسا .

نمت هذه الفكرة وأصبحت كعبة الآمال للشعوب المستأسرة حتى فازت برغبتها تدريجاً واستقلت السرب واليونان والبلجيك بالثورة ورومانيا وبلغاريا ولومبارديا بمساعدة الدول

وفي المانيا نال الوطنيون اربهم بتجمعهم حول راية بروسيا كما اتحدت الاقاليم الايطالية المتفرقة وقتئذ على ايجاد الوحـدة الايطالية . فمن جراة هذين الاتحادين ظهر للعالم دولتان عظيمتان الدولة الايطالية والدولة الالمانيـة .

***

١

الوحدة الايطالية

كانت ايطاليا اسماً جغرافياً ليس إلا . غير انها أصبحت اليوم دولة ، تعد بمصاف الدول العظمى بعد ان كانت في القرن التاسع عشر حكومات متفرقة على حضيض العياء يخيم عليها جناحا النسر النمساوي (الالماني)

ولما تشربت بمبادئ الجنسية ، ظهرت في الاقاليم الايطالية هذه الحركة الوطنية فاضطهدت النمسا حينئذ الوطنيين ولجأ الى فرانسه الثائر (مازيني) فأنشأ فيها جمعية لقلب الملكيات واقامة الجمهوريات . وشعار هذه الجمعية الحرية والمساواة والانسانية . ولم تنجح هذه الجمعية لانها جمهورية النزعة ومفرطة في نظرياتها ، لم تنظر الى استعداد الشعوب ونفوذ الملوك السائد على ارادة الامم آنئذ .

وفي سنة ١٨٤٣ نشأت حركة أخرى في الشعوب الايطالية

سميت (بالبعث) . غايتها تحرير ايطاليا .

وحيث انها لم تفكر بقلب الامراء وانشأ جمهوريات دخل ثلاثة ملوك من الايطاليين في هذه الجمعية واعتنقوا مباديها وحبذوها وعقد هؤلاء الملوك الثلاث عهدة بينهم فوحدوا الكبارك . وأصبح أصحابها يداً واحدة لطرد الاجانب من الاقاليم الايطالية . ولكن قابلتهم النمسا بعقد محالفة مع الحكومات الايطالية الاخرى . فاصبح في ايطاليا حزبان كما هو جار في الامم المحكومة الاول ، الحزب الوطني القائل بطرد الاجانب وتحرير البلاد والثاني حزب متحد مع الاجانب الاعداء ومقاوم للوطنيين .

ولكن تغلب الحزب الموالي للاجانب على الوطني وزحفت جيوش النمسا بمساعدة الحكومات المتحالفة معها وانكسرت الجيوش الوطنية الساعية للوحدة القومية . وظل ملك سردينيا وحده مثابراً على محاربة النمسا ومقاومتها ومع هذا فقد كان هذا الملك لايألو جهداً في تنظيم شؤون بلاده ومنحها حقوقها الاساسية وهكذا بقيت (سردينيا) الحكومة الوحيدة الحرة . فأمها الاحرار المضطهدون والطلبة والمفكرون من الاقاليم الاخرى واجتمعوا حولها وشيدوا بنيانها سعياً لتأييد كلمتها .

وكان هذا الملك الوطني (فكتور عمانوئيل) يؤيد فكرة الوحدة الملية ونشأ عن هذا حزب وطني جديد كان يسعى لايجاد الوحدة الايطالية تحت حكم ملك سردينيا . واخذ بالاعمال ناشراً روح الوطنية في سائر الاقاليم سراً . ولكن الحصول على هذه الغاية المليه كان لايتم الا بالسيف . ولذلك وجب على سردينيا اشهار الحرب على النمسا الغاصبة . ولما كان النصر لايتم لهم الا بمساعدة احدى الدول عملت لايجاد حليفة لها

وكان الامل ضعيفاً جداً في استمالة بريطانيا لذلك شرعت سردينيا بأجتذاب فرانسه ؛ فلبى دعوتها نابوليون الثالث امبراطورها في ذاك العصر

وفي سنة ١٨٥٩ اعلنت فرانسه الحرب على النمسا وطردتها من قطعة (لومبارديا) والحقتها بدولة سردينيا ؛ ولما كانت الروح الوطنية قد اخذت مسراها في خلال هذه الحرب التحق بسردينيا ثلاثة حكومات ايطالية وهي (بارم)و(مودان) و(طوسقان) وايالة (روماني) احدى ولايات البابا واعلنت انضمامها الى سردينيا

وبعد ذلك بقي البابا وملك نابولي اعداء الحركة الوطنية والوحدة القومية لعلمها بانها تقضي على سلطانهما الشخصي ومنافعهما الذاتية .

فلم تتجاسر حكومة سردينيا على مناوئتهما ، بل اوعزت خفية لتأليف عصابات وطنية استلم قيادتها (غاريبالدي) الشهير واستولى على نابولي ، فولى ملكها هارباً حينما رأى الروح الوطنية الثائرة. وقد تحركت همة سردينيا لهذا الانتصار وفتكت بجيوش البابا واحتلت ايالاته الا (رومة) وفي سنة ١٨٦١ نودي (بفكتور عمانوئيل) ملكاً على الوحدة الايطالية . فهاجمت رومة الثوار واحتلتها الى أن ارسلت فرانسا جيوشاً وطردت الثوار واستردت للبابا سلطانه وتركت حامية فرنساوية للمحافظة عليه

بيد انه في الحرب السبعينية اضطرت هذه الحامية للانسحاب فدخلت الجيوش الايطالية (رومه) بسلام وجعلوها عاصمة لدولتهم المتحدة الجديدة .

ومن ثم اخذت الاحزاب الوطنية الايطالية تفكر بضم كل بلاد يتكلم اهلها بالايطالية مثل (التيرول) و (تريسته) اللتين كانتا بيد النمسا (وكورسيكا) و (نيس) بيد فرانسه و (مالطه) لانكلترا ومقاطعة (تاسين) بسويسرا .

وقد ساعدهم دخولهم في الحرب العالمية وانضمامهم للحلفاء على استرداد قطعتي التيرول وتريسته من النمسا عقب الانتصار

٭٭٭



٢
المانيا

كانت المانيا سنة ١٨٤٨ اسم لغير مسمى وكانت منقسمة الى اقسام أكثر من ايطاليا فكان عدد الحكومات الالمانية المتجزئة ستة وثلاثين جزءً وفي كل اقليم منها حكومة قائمة بذاتها والحروب التي قام بها الالمان ضد (بونابارت) امبراطور فرانسه جعلت روح الوحدة تنمو وتزداد يوماً فيوماً فيها .

واول ما تأسس لهذه الغاية حزب مؤلف من الطلبة والكتبة وفكر بارجاع الامبراطورية العظيمة بتوحيد عناصر الشعوب الالمانية .

غير انه ؟ ما لبث يظهر رغبته حتى قاومته ملوك المانيـا بالمطاردة والسجن كانه عدوٌ خائن . فاخفى افراد هذا الحزب غاية الوحدة القومية وعمدوا لنشر مبادئ الحرية والحقوق المدنية الاساسية في الاقاليم الالمانية ضد الملوك . وقصدوا بذلك كسر شوكتهم لانهم كانوا يقاومون فكرة الاتحاد الملي خوفاً على سلطانهم

الشخصي ونجحت اعمال هذا الحزب واحدثت سنة ١٨٤٨ ثورة في (ويانه) و(برلين) التي ارعبت ملوك الالمان .

فلما اوجسوا خيفة منها . منحوا اممهم الدستور .

فاجتمع النواب وشرعوا بوضع الحقوق الوطنية على مبادئ الحرية والمساواة بنظر القانون واستقلال العدلية واطلاق يد حكامها وتناقشوا في انشاء حكومة متحدة الاطراف والاجزاء فلم يتمكنوا من انجاز هذه المسئلة الحيوية لانه حال دون اماني الوحدة عقبة كؤود الا وهي الاختلاف في اي الملكين تعهد اليه الرآسة ؟

فانقسم على اثر ذلك اعضاء المجلس الى شطرين وضعف شأن الاحرار لانقسام الاراء واختلاف الافكار وهذا ماسمح لملوك المانيا بان تعاقب الاحرار باشد العقوبات الصارمة انتقاماً منهم .

ورجع كل من امبراطور النمسا وملك بروسيا يعمل على حدة لضم الممالك الصغيرة اليه وايجاد الوحدة تحت سلطانه . فاستمال ملك بروسيا سبع عشرة حكومة اليه وحالفهم وكذلك امبراطور النمسا حالف اربعاً منهم .

فكان هناك زعيمان متنافسان على الرآسة :

ملك بروسيا وامبراطور النمسا

اما النصر فكان يكاد يختص لمن هو اقوى شوكة واشد بطشاً . فسبقت بروسيا ووضعت تشكيلات جديدة هيئتها لخوض غمار الحروب واكتسبت ذلك الامتياز العسكري دون غيرها من المعاصرين لها .

ونظمت الامور المالية والاقتصادية حيث كثرت مواردها ونشطت الزراعة والتجارة واصلحت امور الشرطة .

ومن هذه الاصلاحات وضع نظام الكمرك . وقد كان هذا النظام في غاية من التشويش وهناك (٦٧) (تعريفة) له . فوحدت بروسيا هذه التعريفات بتعريفة واحدة وجعلتها منخفضة الرسوم وفي غاية البساطة . فكانت اكمل النظامات في اوروبا حتى رفعت شأن تجارة بروسيا .

وكان من دهاء بروسيا ان قسمت ايراد الكمارك بين الحكومات المتوالية لها على نسبة عدد سكان كل واحدة منها وانضم الى الاتحاد الكمركي قسم من الممالك الالمانية المكتنفة . وتم الاتحاد الكمركي تحت سيطرة بروسيا .

وكانت تجدد مدته كلما انقضت .

فانفردت بعدئذ دولة النمسا عن المانيا . مع مايكتنفها من سائر الاقوام غير الالمانية .

غير انه كانت النمسا لم ترض من نجاح بروسيا وعملت على معاكستها وعرقلت وحدتها بكل فرصة سنحت لها حتى اضطر (بسمارك) رئيس الوزارة لنصح حكومة النمسا سنة ١٨٦٢ بترك المانيا وشأنها • فلم يجد هذا النصح نفعاً وكان لابد من السيف ان يعمل ولكن كانت بروسيا تخشى من دخولها الحرب خوفاً من اتفاق الدول عليها . لذلك اخذت على عاتقها ابقاء الدول على الحياد في الحروب التي عزمت على اضرام نارها في اوروبا .

اتفقت أولا مع النمسا وحاربت الدانمرك سنة ١٨٦٤ وانتزعت منها مملكتي (شلزويك) و (هولشتاين) باعتبار انهما كانتا من اجزائها الطبيعية واقتسمتهامع النمسا • وسنة ١٨٦٦ اعلنت بروسيا الحرب على النمسا واسترجعت منها ما اصابها من حرب الدانمرك (هولشتاين) وهكذا ضربت على ايدي النمسا وصفا لها الجو • وتمت الحلفة الالمانية وانقسمت السلطة بين بروسيا والدول الصغيرة على ان يبقى لكل مملكة حق الادارة الداخلية والقضاء والبوليس والمالية والمعارف والاديان

وكانت صلاحية بروسيا بصفتها ممثلة للاتحاد الالماني تزيد من غيرها في بضعة نقاط مهمة وهي :

١ — الامور العسكرية البرية والبحرية • وان يكون

ملك بروسيا رئيس الجيوش وعلى الدول الصغيرة ان تتبع نظام الجند البروسياني

٢ - الامور الخارجية والعلائق الدولية . فعقد الصلح واشهار الحرب وابرام المعاهدات وتعيين السفراء ورجال الدولة في الخارج من صلاحية ملك بروسيا

٣ - ومن حقوقه النظر والبت في الشؤون الادارية وما يليها من الكمركية وضرب السكة وتأسيس البنوك وتعيين الاوزان والمكاييل والبريد والتلغراف والسكك الحديدية .

٤ - وله حق التشريع في القوانين العدلية وفي الصحة العمومية وتنظيم ميزانية للانفاق على مصاريف الدولة .

بقي اربع ممالك لم تدخل في الحلفة بل عقدت مع بروسيا معاهدات اتفاقية ودخلت في الاتحاد الكمركي معها .

وفي الحرب السبعينية ١٨٧١ لما انتصرت المانيا على فرانسه وحاصرت باريز اجتمع الامراء والقواد في قصر (ورساي) بقرب باريز ونادوا بملك بروسيا امبراطوراً على المانيا . واضيف الي الامبراطورية الممالك الاربعة التي مر ذكرها . وحسبك هذان المثالان لبعث الامم بعد موتها واحيائها الوحدة الملية

شاهداً على مانقول .

ونذكر هنا اسماء الدول التي بعثت في اوروبا في القرن التاسع عشر :

«١»	١٨٢٩	نالت اليونان استقلالها بمساعدة روسيا
«٢»	١٨٦١	اتحدت ايطاليا بمساعدة فرنسا
«٣»	١٨٧١	: المانيا بدهاء رجالها
«٤»	١٨٧٨	استقلت رومانيا بمساعدة روسيا
«٥»	١٨٧٨	« بلغاريا : :
«٦»	١٨٧٨	« السرب : :

***

فمن هنا يتضح لنا ان مبدأ الجنسية هو الذي كان سبباً لبعث الامم في الغرب بتأييد سلطانه عليها . وحرر قسماً من الامم الاوروبية وترك القرن التاسع عشر شعوباً مستعبدة حتى اذا ما جاء القرن العشرون نهضت هذه الشعوب من ذلتها حاذية حذو من سبقها من الامم لاعتناق هذا المبدأ الشريف فقامت في الحرب العالمية امم المجر وبولونيا وبوهميا و كرواتيا وفنيسيا والالزاس واللورين وتحررت وتغيرت خريطة العالم

الاوروبي . فاتم هذا العصر الجديد مالا يتممه العصر السابق . ولم يبق في اوروبا اليوم من الامم والشعوب الغير المحررة شيء يذكر ؛ سوى الشعب الايرلندي الذي يئن للان تحت نير بريطانيا وسكان جزيرة مالطة وغيرها من المقاطعات الصغيرة

وبعد ما اتم تحرير الشعوب في الغرب تسرب هذا المبدأ الى الشرق ودبت فيه تلك الروح النبيلة وذلك لاستعداد الافكار العامة والخاصة على قبول فكرة القومية السارية .

لا سيما وان اتصال الغرب بالشرق مماسيكون اكبر مساعد على بث ونفوذ الروح الجنسية وسرعة سريانها في القريب العاجل

اما الاتراك فلم يعتنقوا مبدأ الجنسية مع اختلاطهم الدائمي بالامم الاوروبية الا بعدان قاتلهم وطنيون مختلفون من رعاياهم «كالعرب واليونان والبلغار والرومان والارمن مع من اقتفى اثرهم من الشعوب الاسلامية كالمصريين والالبان والبوشناق ونجد وعسير واليمن والحجاز والعراق والحسا وسورية وفلسطين»

وعلى كل حال فالاتراك قد تأخروا عن قبول هذا المبدأ وكانوا سبباً لتأخر سرايته علينا نحن العرب . لان سرايته الينا كانت مناطة بحلوله في الروح التركية ولما احتل في الروح

التركية واخذ ينمو فيها شيئاً فشيئاً محولا قوة الاتراك الى الحركة « الطورانية » اخذت الشبيبة العربية تنتقد هذه السياسة الجديدة القومية في الاتراك .

على ان هذا الانتقاد لم يكن منبعثاً عن جهل الشبيبة منافع الحركة القومية ، بل كان يرمي الى بث فكرة الملية العربية فى ابنائها ملقياً مسولية تلك على عاتق الاتراك

فمن هنا يثبت لدينا ان مبدأ الجنسيات اخذ يسري في الشرق وكان بدء ظهوره في الاناضول وفي ايران « ثم في الافغان » وقد ظهر ايضاً في الساحل الشمالي من القارة الاوروبية باجلى مجاليه . فهناك الريفيون في المغرب الاقصى والسنوسيون في طرابلس الغرب وبرقة والمصريون في مصر قد اعتنقوا هذا المبدأ واخذوا يحاربون الاقوام المسيطرة عليهم لطرد اولئك من بلادهم ولم تكن هذه النتيجة الا من تأثير المواقع الجغرافية لان الاناضول ومصر وطرابلس والريف اقرب السواحل الى القارة الاوروبية فجزيرة العرب اليوم محاطة باقوام قد سرت في عروقهم الروح القومية والوطنية وقاموا يبذلون دمائهم في سبيل نصرتها كالفرس شرقاً والاتراك شمالا والمصريين غرباً

فبشرى لنا نحن العرب على هذا الانحصار الذي يطوقنا

بازغاً نوره الكاشف عن ظلمات بوادي الجزيرة وفيافيها •
فانه سيأتي لنا بمعجزاته ويعيد الينا قوميتنا ووحدتنا القديمة

***

جزيرة العرب

كانت جزيرة العرب ؛ المعلومة الحدود اسما جغرافياً فقط ؛
بعدما افتتحها السلطان سليم الاول في القرن العاشر الهجري •
وقد كانت الروح العربية فيها تميل ميلاً فطريا الى الحرية
والاستقلال وتنفر طبيعة من الاسر والاستعباد فلم تخضع
للدولة العثمانية تمام الخضوع . وكان اعظم سياج يقيها صولة
الفاتحين وامنع حصن لها هي تلك الرمال التي تحتاطها من كل
جانب وقلة المياه وعدم وجود العمران في اكثر اطرافها . وهذا
ما سبب فشل الاسكندر (المكدوني) الذي امتدت عنقه
اليها مضافاً الى ما اشتهر به العرب من البسالة والبطولة
والاستماتة في سبيل حريتهم المقدسة ووطنهم العزيز . فان اليمانيين

حاربوا الهولنديين ولم يمكنوهم من بلادهم وبقوا قائمين بوجه الحكومتين الايوبية (الكردية)والمماليك الجركسية مدة اجيال ظلت انحاء الجزيرة مذابح للجنود الفاتحة والمستعمرة الاجنبية الى اوائل عهد العثمانيين الذين استولوا علـى سوريا والعراق وفلسطين استيلاء سيـاسياً اكثر منه حربياً . استقبلتهم تلك الامم العربية كحماة لهم من تعدي وتسلط طوائف الملوك البدوية وزعماء العشائر الرحالة . وعدا ذلك كان العثمانيون ، يدينون بدينهم وكانت الفكرة الدينية مستولية في ذاك العصر عـلى جميع الشعوب الشرقية والغربية . استفادت الدولة من هـذه الروح الدينية والاخوة الاسلامية واحتلت المدن والاقالـيم العربية نحو ثلاثة قرون ونيف . ومـع ذلك لم تكن الجزيرة خاضعة تمام الخضوع لبني عثمان . اذ كانت السيطرة والسلطان والرأي في يد زعماء العرب مثل الامير بشـير الشهابي في لبنان وآل العظم في دمشق وآل الشاوي ببغداد واسـرة السعدون في البصرة والشرفاء في الحجاز والائمة في اليمن والامراء المتعددة في وسط الجزيرة كابن السعود وابن الرشيد

النهضة الفكرية : (١٨٥٧) ابتدأت الحركة الفكرية في خلال هذه السنة فصدرت اول صحيفة عربية (حديقة الاخبار)

واخذت تنمو العواطف والشعور الوطنية شيئاً فشيئاً

و(١٨٦٠) لما وقعت هائلة الستين ، كانت تلك الفظائع المريعة كقنبلة انفجرت في عقول المفكرين . وعلى اثر ذلك هب لهيب العداوة للدولة وادركت الامة عواقب الجهل . فتأسست مدارس جمة وظهرت مجلات مختلفة وازدادت الصحف المحلية وصادف اثناء ذلك تعيين مدحت باشا ابي الاحرار والياً على الالوية العربية المختلفة فحث هذا الشعراء والكتبة والمفكرين والعلماء على النهضة . فقام هزارها اليازجي يصيح : تنبهوا واستفيقوا ايها العرب

وعدا الآثار العمرانية التي تركها لنا ذاك الرجل العظيم (مدحت) قد نفخ في روح الامة العربية نفخة القومية ، حتى انها كانت في ابان ولايته الجمعيات السرية والعلنية تعمل بكل جد ونشاط وتنشر المنشورات التحريضية للايقاظ من النوم العميق واسست جمعيات المقاصد الخيرية لهذا الغرض . وعلى اثر هذه الحركة وقع ثورات عديدة فظهر ابن عروق في تدمر وثارت عشائر المنتفك في البصرة وقبائل شمر في نواحي بغداد والدروز في حوران

١٩٠٤ وكان ممن اجاب الدعوة العربية الامير عبد العزيز

السعود الذي سل سيفه وهو في الثامن عشر من عمره

١٩٠٥ فتبعه الامام يحيي حميد الدين وتقلد الحسام ونزل الى ميدان البراز . فقاتل للوطنية والاستقلال

وفي خلال هذه السنة انعكس صوت الاماني القومية الى الخارج وانعقد « موتمر الوطني العربي » في باريز الذي كان شعاره بلاد العرب للعرب وصدر كتاب « يقظة الامة العربية في اسيا التركية » لنجيب العازوري

١٩٠٦ وظهر الثوروي العربي الذي مات قبل ان يرى تحقق احلامه . وهو الشيخ عبد الرحمن الكواكبي. قابل هذا الرجل القدير رؤساء الامة واختبر احوالهم والف رواية « ام القرى » . وطبائع الاستبداد . واشار الى العرب بالتجدد في ثلاث امور « ١ » دينية « ٢ » سياسية « ٣ » اخلاقية

١٩٠٧ ولما اعلن الدستور العثماني دخلت القضية العربية في دور جديد، دور قانوني واساسي. تجاهر المفكرون والزعماء بالاماني القومية . وكان اول عربي اعرب عن حقوق العرب فوق منبر رسمي وسياسي هو

شكري العسلي نائب دمشق . اذ نهض وصرخ تلك الصرخة التي دوت في انحاء الجزيرة ورنت في قلوب الامة : حقوق العرب

طربت الارواح اطمأنت القلوب لهذا الصوت وتحركت العوامل النفسية لصوت الحق

١٩٠٨ أسست جمعية (الاخاء العربي) في الاستانة وكان لها جريدة خاصة — لسان حالها — يدير امورها شهيد الوفاء وفقيد الاستقلال ، شفيق بك المؤيد .

١٩٠٩ ولما انفرطت تلك الجمعية على اثر حادثة الارتجاع قام مكانها « المنتدى العربي » ومن هنا اخذت احلام الكواكبي وآراؤه تتحقق . فأنشأت في خلال هذه السنة « الجمعية القحطانية » السرية وتلتها « جمعية العهد » المؤلفة من القواد والضباط العرب .

١٩١٠ ونشأ في مصر حزب اللامركزية برآسة رفيق بك العظم المؤرخ الشهير .

١٩١٠ وكانت قد اخذت الجمعيات السرية والعلنية تعمل لاثارة امراء العربية على الدولة فثار الادريسي في هذا العام وتمكن من تأسيس « امارة العسير » الشافعية

المذهب .

١٩١٣ أسست الجمعية الاصلاحية وعقد المؤتمر العربي في باريز . فاستفحل امر القضية العربية ودخلت في دور سياسي وعاضدتها الحكومة الافرنسية . فارسلت الحكومة العثمانية مدحت شكري (سكرتير) الجمعية الاتحادية وفاوض رؤساء الحركة وتم التفاهم بين العرب والترك

١٩١٥ الا ان الحكومة لما أصبحت بلا رقيب ولا مناظر وكانت قد أشهرت الحرب على دول التحالف التي كانت آخذة على نفسها حماية القضية العربية ، اعدمت أول باقة من زهور ريعان الشبيبة العربية فكان لاصوات الشهداء وقع سيء في قلوب العرب . فايقن كل عربي صغيراً أو كبيراً كان ، بانه لايرجى لهم نفع من الاجانب ولو كانوا مسلمين . فمالت آنئذ القلوب واتجهت الانظار نحو الفكرة القومية العربية وتحولت عن الرابطة الدينية . فساعدت العرب جيوش الحلفاء مادة وادباً وعرقلت حركات جنود الاتراك والتحقت العساكر العربية أفواجاً أفواجاً بالمعسكر البريطاني

حتى كانت أعظم سبب لانكسار الدولة العثمانية في ساحتي سيناء والعراق . كانت الوضعية السياسية لما انسحبت الدولة من الجزيرة كما يلي :

١ الحجاز دولة مستقلة ، اعترفت بها دول التالف اثناء الحرب يرأسها السلطان حسين الهاشمي ملك الحجاز .
٢ حكومة الزيدية في اليمن وعاصمتها صنعاء ورئيسها الامام يحى حميد الدين وهي مستقلة بنفسها .
٣ امارة العسير واميرها السيد الادريسي وهي مستقلة . ولكن تحت شيء من النفوذ البريطاني الادبي .
٤ سلطنة نجد رئيسها الامير عبد العزيز بن السعود وهي مستقلة وحليفة بريطانيا
٥ امارة حضرموت وفيها عدة مشايخ وامراء تحت السيطرة البريطانية الضعيفة .
٦ امارة باب المندب (٧) سلطنة لحج وهما في حوزة السلطة البريطانية .
٨ امارة الكويت واميرها احد انجال آل الصباح . تحت الحماية البريطانية منذ سنة ١٩١٣
٩ سلطنة مسقط وسلطانها الملك تيمور تولى العرش سنة

(٩١٤) وكانت تحت الحماية البريطانية منذ نحو قرن على اثر نجاح الشركة الهندية الانكليزية، بعد اضمحلال النفود الافرنسي والبرتغالي في الخليج الفارسي .

١٠ امارة البحرين المشهورة بمغاوص اللؤلؤ تحت الحماية البريطانية

١١ سوريه (١٢) لبنان (١٣) العراق (١٤) فلسطين (١٥) الحديده وسواحل تهامة كانت تحت الاحتلال العسكري البريطاني والافرنسي الناجم عن حالة الحرب .

١٦ عدن التي احتلتها بريطانيا سنة ١٨٣٨ (١٧) شبه جزيرة قطر استولت عليهما بريطانيا قبل الحرب

فكانت الاقاليم المستقلة استقلالا حقيقياً خمسة وهم (١) الحجاز (٢) نجد (٣) اليمن (٤) العسير (٥) حضرموت . فاستقل ايضاً خمس حكومات عربية تحت الانتداب الاوروبي وهي : (١) العراق (٢) فلسطين (٣) شرقي الاردن (٤) سوريا (٥) لبنان . وكانت الاقسام الباقية تابعة للتاج اليريطاني

فاذا تركنا الحكومات المنتدبة على حدة — لاسباب هناك ودواع سياسية نرجع وتتسائل :

لماذا لم تتكون دولة عربية مستقلة من اتحاد الحجاز واليمن

وعسير ونجـد وحضرموت ؟ مـع (١) ان الوطن مشترك (٢) والجنسية عربية (٣) واللغة واحـدة (٤) ودينهم الاسلام (٥) ومنافعهم بالوحده أعظم مما هي بانفصال بعضهم عن بعض وهناك سؤال آخر : أهذه النتيجة المؤسفة تدل على التقهقر والنزول ، أم على الرقي والتقدم السياسي والاجتماعي ؟ لايمكننا الرد على هذين السؤالين بكلمة قبل ان نبحث ولو اجمالا عن الطور الاجتماعي التي وجدت فيه الامة العربية :

ان للشعوب كما للافراد جسماً وروحـاً . جسم الشعب هو عبارة عن هيئة الافراد التي يطلق عليها اسمه والبقاع الـتي يقطنها ذلك الشعب . امـا الروح فتتكون من وحدة الخلق والمنفعة العامة والاعتقاد حتى اذا بلغ افراد امة هذه الدرجة من الوحدة تولد بينهم محبة غريزية وازدادت روابط الالفة والتعاضد ونمت بينهم فكرة الاتحاد فيظهر من هـذه العوامل النفسية شعور مشترك يسمى (الوطنية)

الوطنية هي اساس العمران البشري وام الحضارة الانسانية ولنمو هـذه الروح أطوار وأدوار تتقلب عليها جميع الامم والشعوب . فتولد اولاً (١) في العائلة ومنها تسرى (٢) الى القرية ثم (٣) الى المدينة فالى (٤) الاقليم ومنه الى (٥) المملكة العامة .

فاذا بلغت امة دور المدينة اخذت القوة الاجتماعية تظهر جلياً في ابتداعها آيات الرقي والحضارة كما ابتدعت مدائن صيدا وصور وجبيل في زمن الفنيقيين . وامتلاك اهلها البحور والقارات واستعمرتها باساطيلها التجارية .

واذا دخلت امة في دور الاقليم ظهر منها معجزات التمدن والنهضة كما ظهر من الاقليم الحجازي بعد ما تكونت هذه الروح فيه بتأثير الدين الاسلامي .

فاذا دخلت امة في دور انتشار روح الوطنية في المملكة واجتمعت الاقاليم تحت هذا السلطان الاجتماعي نالت تلك الامة من المجد والعظمة مانالته ايطاليا والمانيا وفرانسه وبريطانيا وغيرها من الامم الموقرة .

وهناك اسباب خارجية مؤدية لسرعة نمو هذه التقلبات مثل الحروب الخارجية والاخطار المحدقة بهذه الاقاليم كاستيلاء الاجانب واستعمار البلاد وطموح الفاتحين كما اتحدت الامتان المسيحية والمحمدية في فلسطين تجاه الخطر الصهيوني . واذا لم تكن هناك اسباب مؤدية لسرعة نمو هذه الروح كان نموها بطيئاً فاذا اختمرت اخلاق الامة على هذه الوحدة قام هناك زعيم وجمع الاقاليم ووحدها كما فصلناه في الوحدة الايطالية والالمانية .

فاذا تحرينا درجة الطور الاجتماعي في الجزيرة نرى اننا نحن معشر العرب لم نزل في دور الاقليم . وحسبك دليلاً على ذلك مثلاً اذا ذكر الفلسطيني كلمة « الوطن » فانما يقصد بذلك البلاد المنحصرة باقليم فلسطين لا بغيرها والعراقي والحجازي والنجدي مثله ولا يتجاوز شعور احد من سكان الجزيرة دائرة اقليمه . مع ان المقصود الحقيقي من كلمة الوطنية هي الجامعة التي يتولد منها الوطن العام لا بعض اجزائه الطبيعية

فالجامعة القومية يجب ان تعم جزيرة العرب لا ان تخص بقعة من بقاعها . وقد رأينا في المدة الاخيرة ان هذه الفكرة الخاصة قد ظهرت باجلى مظاهرها في لبنان وسوريا . فاخذ اللبناني يبتعد عن السوري تمام الابتعاد ، حتى اذا قلت له الوحدة السورية اقشعر بدنه واغتاظ من ذلك وما الداعي الى ذلك سوى الوقوف على الطور الاقليمي الذي نحن بصدده فحسب . كما ان اللبنانيين هم ليسوا اسعد حظاً من اخوانهم السوريين في هذه الانقلابات البشرية . ولم يزالوا محصورين في دائرة الاقليم لان هناك عاملا مهماً من العوامل التي تولد بين تلك الاقاليم فكرة الوحدة القومية القائمة على الاشتراك في الدين الامر الذي لم يتم . وقد لاحظنا ان المسلم اللبناني يطالب الوحدة لان المؤثرات العمومية

المشتركة بينه وبين السورى هي كاملة ومزاجه العقلي ومنافعه العمومية وعقائده الدينية يشاركه فيها المسلم السوري .

أما اللبناني المسيحي والمسلم السوري فلم يتحدا الا بشعورهما العقلي ومنافعهما العمومية . والعقائد الدينية مختلفة لذلك قام اللبناني المسيحي يرفض الوحدة السورية لان النزعات النفسية تتغلب في اكثر الاحايين على النظريات العلمية ولكن يجب ان نعتقد اعتقاداً تاماً ان الوحدة القومية العربية ستظهر قريبا . لان دور الاقليم ليس الا دوراً تمهيدياً للوحدة القومية العامة ومن الاسباب التي ستعجل بامتداد الروح القومية في الجزيرة واتحاد عناصرها مما احاط بها من سلاسل الاستعمار الثقيلة . وهذا ما آل باهل الجزيرة عموماً ان يشعروا بذل الاستعمار وبطشه .

فالحجازي الذي هو مستمر الاتصال بجميع أفراد الشعوب المستعمرة قد شاهد بأم العين نتيجة الاستعمار الناجمة عن مظالم المستعمرين والنجدي والكويتي والعماني قد تبصر بعواقب الاسر والذل لقربه من الهند والعراق . والفلسطيني الذي طرد من ملكه وأصبح غريباً في بلاده قد ذاق بنفسه مرارة الاحتلال الاجنبي .

ومن الاسباب الداعية لتعجيل الاقاليم العربية بالاتحاد

والخروج من دور الاقليم هي وحدة المزاج والاخلاق الاجتماعية والشعور الديني التي ستمهد سبيل التفاهم والاتفاق بين تلك الحكومات المتفرقة وهنا نعود للرد على اسألتنا التي اوردناها فنقول

«١» لم يتكون دولة عربية عظيمة من اتحاد حكومات اليمن والحجاز ونجد وحضرموت والعسير لاننا لم نزل في دور الاقليم

«٢» وهذه النتيجة ؛ بالنسبة الى ما كنا عليه قبل عصر ؛ هي ليست الا ترقياً وتقدماً في التقلبات والتطورات الاجتماعية

لذلك أصبحنا ننتظر بفارغ صبر ظهور ذلك الزعيم الذي سيجمع كلمة العرب ويوحدهم ويجعل منهم امة عظيمة يسجل له التاريخ البشري افعاله الخالدة

فحالتنا السياسية اليوم أشبهت حالة الامة الايطالية لما كان ملك سردينيا يسعى للوحدة القومية والملوك الاخرى يقتلون كل من فاه بكلمة منها خوفاً على استقلالهم ومنافعهم الخاصة حتى ان فريقاً منهم حالف الاعداء المحتلين للاقاليم الايطالية وحارب جيوش الملية .

فعندنا اليوم في جزيرة العرب عدة زعماء منهم ثلاثة اخذوا يتنافسون على الرآسة وهم :

(١) الملك الهاشمي الحجازي (٢) سلطان عبد العزيز بن

السعود ، سلطان نجد (٣) السيد يحيي حميد الدين امام الزيدية في اليمن .

الحجاز — الملك حسين الهاشمي

تغلب على مكة سنة ٣٥٨ هجرية في عهد بني العباس الشريف جعفر بن محمد بن الحسين الذي ينتهي نسبه الى الحسن المثنى بن حسن البط . فاشراف مكة حسنيون وقد تعاقبوا الامارة واحداً بعد واحد في فتن وحروب وقلاقل وثورات . وكانوا مع استقلالهم في امارة مكة واحكامها يرجعون في غالب الاحيان الى الملك المتغلب من عباسي وفاطمي وايوبي وعثماني

ومن مشاهير هؤلاء الاشراف في القرن العاشر الهجري (ابو نمي) الذي صبر صبر الابطال في حادثة مع الافرنج في جدّة وله مواقع كثيرة معهم . واشتهر بالفضل والعلم والبسالة والشجاعه وكانت مدة ولايته ٦٣ سنة وهو من نسل الشريف بركات المتوفي سنة (٨٥٩) هجرية وبقوا على هذه الحال الى ان انشقّ منهم فخذ آخر هو الشريف زيد بن محسن المتوفي سنة

١٠٧٧ هجرية فاصبح شرفاء مكة فخذين [١] آل بركات . [٢] آل زيد

ولما استولى بنو عثمان على الحجاز ولم يتمكنوا من كسر نفوذ الاشراف ، ابقوهم على منصتهم ولكن فرقوا بين الاسرتين وسادوهما

فلما حصل الانقلاب العثماني عزل الشريف آنئذٍ علي باشا وهو من آل زيد وعين مكانه الشريف حسين من آل عون . وكان في الاستانة مكث بها زهاء (٢٧) عاماً . وما زال يتولى شرافة مكة التي هي بمثابة امارة مستقلة . وكان الشريف ذو صلاحية وسيطرة في الحجاز . فانه يقتل ويقطع الايدي ويسجن ويرجم ويعمل ما يشاء .

ولما دخلت الدولة العثمانية في الحرب الكبرى بجانب الاتفاق الجرماني ؛ شعر الشريف حسين بحراجة موقف الحجاز القاحلة التي اذا قطع عنها مورد الحبوب من البحر مات اهلها جوعاً . وصادف وقوع ذلك اثناء اعدام زهرة الشبيبة السورية من قبل جمال باشا وعود الامير فيصل للحجاز فاراً بنفسه من مخالب الموت

وكانت مسئلة الخلافة العربية قديماً تجول في نفوس العرب

والانكليز . وما زالت الحكومة الانكليزيــة تنتهز الفرص لسلخ الخلافة عن بني عثمان او للحط من شأنها على الاقل ولكنها في كل مرة كان نصيبها الفشل والخيبة

وعلى أثر مجاهرة العثمانيين بالعداء لبريطانيا جـاء اللورد (هاردنج)حاكم الهند العام سنة ٩١٤ م . الى خليج فارس وارسل دعوة عامة الى أمراء العرب جميعاً للنظر في مسألة الخلافة والمبايعة لامير عربي كما كانت أنفسهم منطوية على ذلك . ولم تفلح هذه المؤامرة اذ شغلت سلطان مسقط بغتة هائلة كادت تثل عرشه . واشتبك سلطان نجد بواقعة (جرابى) التي نشبت بينه وبين ابن الرشيد . وكان شيخ المحمره مشغولا بهجوم الاتراك وبعض العشائر على الحويزه والناصرية . ولم يحضر الا ابن شيخ البحرين وشيخ الكويت فاكتفى اللورد (هاردنج) بتقليدهما النياشين ورجع للهند مندحراً .

وفي اواخر سنة ٩١٥ عرض السر برسي كوكس الخلافــة على ابن السعود سلطان نجد وتكفل له باسم دولته بكل مساعدة وحماية في هــذا السبيل . ولكن فشلت هذه الخدع والاشراك التي نصبت للسلطان عبد العزيز بن السعود فاعتذر عن عــدم قبول هذا المنصب الذي يجر عليه لعنات الاجيال المستقبلة وعداء

جميع الامراء والامم ولكنـه اشار على السر برسي كوكس بان يرشح شريف مكة لهذه المهمة . لان له من نسبه ومطامعه مايؤهله لهذا المنصب . فبدأت المفاوضات من ذلك الزمن بين شريف مكة وبين الانكليز .

ولما ضاق الامر على بريطانيـا وعجزت جيوشها عن طرد الفيالق التركية المخيمة على أطلال ترعة السويس وأبواب الهند ارتعدت فرائصها خوفاً من أن يثور المصريون بوجههم ويفسحوا مجالا للجيوش التركية لاجتيازهم الترعـة . فيسد عليهم باب الهند . وربما كانت النتيجة ضياع الدرر الهندية والمناجم الذهبية الافريقية .

ففكرت عند ذلك بوجود امراء العرب بجانبهـا . وكان أقربهم للمعسكر التركي المنتشر على ضفاف الترعة ؛ الشريف حسين (الذي هو من أهل البيت) الشريف .

ولذلك بذلت جهدها المستطاع لاستمالته اليها واستعانتهـا به على انجاز فوائد جمة منها :

١ مساعدته اياها لطرد الجيوش التركية من جانب الترعة وابعادهم عنها

٢ اضرام نار الثورة في البلاد العربية حتى تنسحب الدولة

العثمانية منها فتحتلها بريطانيا

٣ قمع تأثير الجهاد المقدس الذي اعلنه السلطان محمد رشاد الخامس .

فعرض السر مكماهون المعتمد السياسي البريطاني في مصر على الشريف حسين برنامجاً واسع الشمول ومؤداه ان تتحرر الامة العربية بأسرها من نير الاتراك وتلتحق بسلطة الشريف الذي سيكون عليها أمبراطوراً عظيماً .

وأخذت المفاوضات والمداولات السياسية تجري مجراها بين الشريف والسر مكماهون على أن يثور الشريف على الدولة التركية وتعهد له الحلفاء بأن يعترفوا له بالاستقلال وعقدت الحلفة الشهيرة التي من جملة بنودها كان :

١ تتعهد بريطانيا العظمى بايجاد حكومة عربية مستقلة كل الاستقلال في داخليتها وخارجيتها وتكون حدودها شرقاً بحر خليج فارس

ومن المغرب بحر القلزم والحدود المصرية (شبه جزيرة سيناء) والبحر الابيض

وشمالاً ، حدود ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعه مع الدجلة الى مصبها في بحر فارس ما عدا مستعمرة

عدن (!) فانها خارجة عن هذا الحدود .

ب تكون البصره تحت احتلال الجيوش البريطانية الى ان يتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيم امورها

ج تتعهد بريطانيا بتقديم كل ماتحتاجه وبيبتها الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والنقود مدة الحرب .

ولما أمضيت المعاهدة على هذا سنة ٩١٦ ارسلت انكلترا اساطيلها لجدة وانزلت العساكر الهندية فوطدت الامر بدون قتال .

وبعد أن عقدت البيعة للملك حسين اعترفت فرانسه وبريطانيا وايطاليا باستقلال الحجاز وعرش الملك حسين وصدر في القاهرة بلاغ مؤرخ ٦ دسمبر ٩١٦ مفاده اعتراف الحكومة البريطانية وحكومة الجمهورية الفرنساوية بحضرة صاحب السمو شريف مكة الاكبر ملكاً على الحجاز وهكذا تم استقلال الحجاز . وقد اعطت الحكومة البريطانية مليونا ومأتي الف ليرة انكليزية لمساعدته اياها في الحرب على الاتراك وجعلت له مقداراً معيناً في السنة كان يتقاضاه الى زمن قريب .

وبعد ما تحققت الاحلام الذهبية ؛ اندفع الملك حسين للعمل والف فصائل عربية متعددة تحت قيادة أنجاله الامراء وحارب

بهم جيوش الدولة .

كانت تلك الفصائل تعرقل الحركات العسكرية التركية وتقطع الاسلاك التلغرافية تارة وتحاصر المدينة اخرى حتى استولت نهاية الامر على دمشق مع الجيوش البريطانية .

هذا ولما جاس الملك حسين على أريكة السلطنة وأخذ يفكر بمستقبل دولته ومصير حكومته بدأ يتخيل تلك الاشباح المخيفة التي كانت قهرت الشريف غالب قبل عصر ونيف وطردته من قصره ونهبت أمواله واضطرته للانهزام منها ملتجأ لينبع . ومازالت تلك الاشباح التي نعني بها الفصائل الجندية الوهابية تعكر صفاء الشرفاء وتعاديهم حتى اشتدت شكيمتها في السنين الاخيرة وتألب أمرها على الدولة العثمانية فاسترجعت منها الاحساء

وتيقن جلالته انه لابد من تمادي الوهابية عليه بالعدوان بعد ان أصبح ذا عرش وتاج . لان الوهابيين كانوا طامحين للحجاز ومتحفزين للوثوب عليه كما كان يعلم ضعف حكومته الحديثة وبأس الوهابية الذي لايستهان به .

هذا فضلًا عن ان جيوش الدولة الحاكمة في ذاك الوقت الذي أعلن فيه نفسه ملكاً وخرج عليها لم تنكسر بعد ولم تتضعضع اركانها . وكان أقل انتصار لها كافياً لاستمالة جميع الامراء المعادين

للحجاز اليها ، فضلاً عن أن الامام يحى حميد الدين كان صديقاً عريقاً للدولة وابن الرشيد كان يساعدها بقدر استطاعته وابن السعود لم يأت بحركة ترمي الى العداء جهاراً وفعلاً نحوها . فصفوة القول انه كانت جميع الامراء العربية برمتها على الحياد الودي نحو الدولة . وهكذا كان الملك حسين هو الوحيد الذي اضمر لها السوء واشهر الحرب عليها .

لذلك اضطر الملك حسين من أجل هذه المؤثرات الخارجية والاخطار الداخلية لان يدعم بناء دولته الحديث وسلطانه الجديد بعقد تلك المعاهدة المشهورة بينه وبين بريطانيا التي منها البند الثاني :

تتعهد الحكومة البريطانية بحماية الحكومة الحجازية من كل مفاجأة تعكر صفاء السلم ضمن حدودها وتهدد أملاكها . وكذا لو حدث حركة عدائية داخلية في بلادها باي دسيسة كانت تضطر الحكومة البريطانية ان تجابه تلك الحركة ادبياً ومادياً وتساعد الحكومة الحجازية على سحقها .

غير ان المساعدة التي تتعهد بها بريطانيا بازاء الاضطراب الداخلي مساعدة وقتية [1] تدوم الى أن تذلل الصعوبات التي

---

(١) احتلال مصر كان ايضا وقتياً وصرح وزراء بريطانيا مرارا بان الحامية البريطانية ستنسحب بعد قمع الثورة العربية واطفاء الفتن

تقوم في وجه الحكومة العربية الآنفة الذكر

هذا البند يظهر لنا جلياً ماكان يخالج فكرة جلالة الحسين من الهواجس الحاصلة عن مركزه المحاط بالمخاطر في ذلك الحين. وهو الذي أوجب الانتقاد الشديد على سياسته ٠

على حين ان الظروف والاحوال في ذاك الوقت كانت ترغم كل من كان بموقع جلالته بأن يستند على قوة خارجية ٠

غير انه كان في امكان جلالته بأن يحصر هذه المساعدة في الاسلحة والمؤن والمال ٠

ولو فعل ذلك لما استطاع أعداؤه سواء كان في الداخل او في الخارج تصويب أسهم انتقاداتهم السامة عليه ٠ لانه لم يضطر حتى اليوم للاستنجاد بقوة بريطانيا العسكرية ضد أي مفاجأة كانت ٠

وهذا مايبرهن لنا على انه كان في استغناء عن وضع هذا البند الذي مس بكرامته وحط من مقامه الرفيع ازاء العالم الاسلامي والعربي معاً

فاول خطأ سياسي أضر بسمعة (خادم الحرمين الشريفين) وجعله محطاً لانتقاد اعدائه واتهامهم اياه بالانضمام الى بريطانيا هو هذا البند الثاني واما الخطأ الثاني ، فهو قبوله الخطة السياسية

التي وضعتها وزارة المستعمرات البريطانية للوحدة العربية مع وجود أمثلة عديدة لدى جلالته من هذا النوع للوحدة القومية في المستعمرات الانكليزية ٠

واليه أعظم نموذج : الهند

وضعت بريطانيا هذا البرنامج السياسي الخلاب وزينته في عيون الملك الهاشمي واخفت عنه ما كان فيه من قتل الروح الوطنية والاستقلال ٠ وهكذا تمكنت من تغرير جلالته فى تنفيذه ٠ فتوج ابنه الامير عبد الله على شرقي الاردن والملك فيصل على سوريا بينما كان الفكر الكامن في وزارة الاستعمار البريطانية تتويج الامير زيد على العراق ٠

أما القصد من وراء هذه الخطة توسيع نطاق حكومات الاردن وسوريا والعراق واتصالهم ببعضهم بالجوف — المركز العسكري والحربي المهم من نقطة سوق الجيش — بعد اقتسامه بينهم أو تعيين أمير حجازي عليه ٠ فتصبح الجزيرة منقسمة من جراء هذا التخطيط الجغرافي السياسي والاستعماري الاداري الى شطرين :

شطر منه يتألف من العراق والجوف وسوريا وشرقي الاردن وفلسطين والحجاز الذي كان سلتحق به العسير خوفاً من تسلط

الامام يحي والسلطان النجدى عليه وتتصل هذه البلاد الخاضعة للنفوذ البريطاني مع حضرموت وحكومة عمان (مسقط) المستعمرتين .

والآخر مؤلف من اليمن دولة الزيدية ونجد سلطنة ابن السعود الحكومتين الوطنيتين اللتين لم يخضعا الى النفوذ البريطاني ولن يخضعا .

فينبسط حينذاك النفوذ الاستعماري تدريجاً بمد الخطوط الحديدية والمحطات العسكرية الهوائية في الشطر الاول منهما وتتصل اجزاء هذه الحكومات كما اتصلت راجاة الهندومقاطعاتها فتكون قدنالت مبتغاها وزارة الاستعمار الانكليزية من وجهين استعماريين :

الاول : حصر القسم الوطني الذي بامكانه مقاومة جيوش الاحتلال (الامام يحى والسلطان ابن السعود) من جهاته الاربعة

شرقاً : خليج فارس (الاساطيل) والعراق المنتدبة

غرباً بحر الاحمر (الاساطيل أيضاً) وشرقي الاردن الذي هو تحت نفوذ وسلطان المندوب السامي

شمالا : الجوف وسوريا والعراق (المستعمرات البريطانية لو تم الامر)

جنوباً ، حضرموت وعمان والاساطيل

فتصبح جزيرة العرب بعد هذا الانحصار محاطة من جهاتها الاربعة بالقوات الثلاث ونيرانها البرية والبحرية والهوائية .

وهكذا كانت قد اعدت الاستحضارات السياسية التي أخفتها تحت طنطنة الالفاظ والتعابير الجذابة في المادة الاولى التي مر ذكرها واغرت جلالة الملك حسين وقسما من الشبيبة العربية فيها .

فبريطانيا وان فشلت تلك الغاية السياسيه من جراء المناظرة والرقابة الدولية فهي لا تزال عازمة على تنفيذ تلك الخطة بنفسها وقد هيأت مؤتمرات الكويت لهذا القصد . والدليل على ذلك نذكر هنا رسالة احد مندوبي الحجاز التي نشرتها جرائد فلسطين وسوريا والعراق ومصر وهي في غاية الوضوح . تثبت مآرب بريطانيا الخفية تحت مرابي موئتمرات الكويت .

قال المندوب :

كنت ابرقت اليكم عن الفشل الذي حاق موئتمر الكويت بسبب تصلف مندوبي ابن السعود وعنادهم . فان هوءلاء المندوبين كانوا وافقوا على جعل الجوف مركزا ممتازاً لا سيطرة عليه لابن سعود (!) ولا لشرق الاردن .

ثم عادوا اليوم الى الاعتراض عندما علموا ان ابن الرشيد هو الذي سيتولى شوءون الجوف ورفضوا الفكرة الاولى رفضاً باتاً . وذلك لتخوفهم من امتداد سلطة ابن الرشيد في المستقبل وسعيه للقضاء على نفوذ الوهابيين هناك مستعيناً بالعراق والحجاز وشرقي الاردن » . ويخشى من هذه السياسة على دولة الامام يحى وسلطنة بن السعود في المستقبل جدا

فلو انعمنا النظر في تاريخ كلتا الحكومتين نجد واليمن ؛ لوجدنا ان بقاءهما سالماً من الشوائب الاستعمار الى اليوم كان آجلًا عن ملكيهما الاثنين لاعن موءثرات غيرها .

لانه ما جاء اليوم الذي وضعا فيه وحصحص النور أمام عينيهما الا وتلبدت حوله غيوم كثيفة من أفواه المدافع ولعلعة البارود وبين صلصلة السيوف وسنابك الخيل حتى شيدا مملكتين عربيتين قويتين بجد ساعدهما محافظين على كيانهما بدهائهما السياسي من كل شائبة

غير ان شكل حكومتهما لايتحاوز الشخصية . وقد أثبت لنا تاريخ الامم العربية جميعاً وماضي أحوال اليمن والحجاز ونجد ان الحكومات والدول الشخصية تنقرض مهما كانت عظمتها ووسعتها من جراء عدم اقتدار الزعماء الذين استولوا على زمام

الحكم بعد ممات أسلافهم المقتدرة والمحنكة . وزاد الطين بلة ؛ طموح الامراء للعرش والقتال الناشب من هذا الخلاف

فلذلك بات من المستحيل ان يأتي بعدهما زعماء عظام يمثلون ما حاز هذان الملكان من الحنكة والتدريب والسياسة والكياسة والقيادة والادارة ليحفظوا كيان تينك المملكتين من بوائق الاستعمار الواقف لهما بالمرصاد

فمن هنا يظهر اهمية تأسيس حكومة سياسية وأساسية تمنع القلاقل الداخلية وسقوط الدولة في هاوية الانقسام والضعف والانحطاط اذا مات زعيمها .

اما الاسباب التي أعدتها بريطانيا لتحقيق امانيها بالقضاء على حكومتي اليمن ونجدوغيرهما مع من بقي خارجاً عن نفوذها فهي بذور الشقاق والاختلاف بين اولياء العهد ومرشحي السلطنة اذا قدر الله ومات هذان الزعيمان

وهكذا يتم لها تأييد سلطانها باضعاف الشطرين من غيران يسفك نقطة من دماء بنيها الغالية عندها في هذا السبيل ، وتقويض عروش الشطرين الذين سيصبحان عبارة عن راجات الهند وترفع حينذاك على خرائب الممالك العربية الاعلام اللاعربية ...

هذه هي الوحدة العربية التي يتناشدها المتناشدون ويؤمها المجاهدون فيتبين لنا جلياً ان الطرق التي خطتها بريطانيا لتحقيق امانيها الاستعمارية في هذه الجزيرة هي مستورة تحت المادة الاولى في المعاهدة البريطانية الحجازية الآنفة الذكر .

فاغرت الملك حسين مع قسم من أفراد الشعب العربي الذي اخذ يساعدها بالسر والعلانية على نيل مرضاتها ظاناً بانها تسعى وراء تحقيق احلام الامة العربية لوجه الله ومحبة بالانسانية . ليت شعري لو سئل احد الناس حضرة السر مكماهون قائلاً له :

١ اين هي الامبراطورية العربية المزعومة القائل بها بموجب معاهدة ٩١٦ جلالة الملك الهاشمي ؟

٢ اين موقع حكومة شرقي الاردن العربية (المستعمرة الحارسة لليهود من الامبراطورية العربية ؟

٣ اين العلاقة والرابطة السياسية (ولو اسمياً) بين العراق ومركز الامبراطورية المنصوص عنها

***

ختام الجزء الاول ، والثاني تحت الطبع

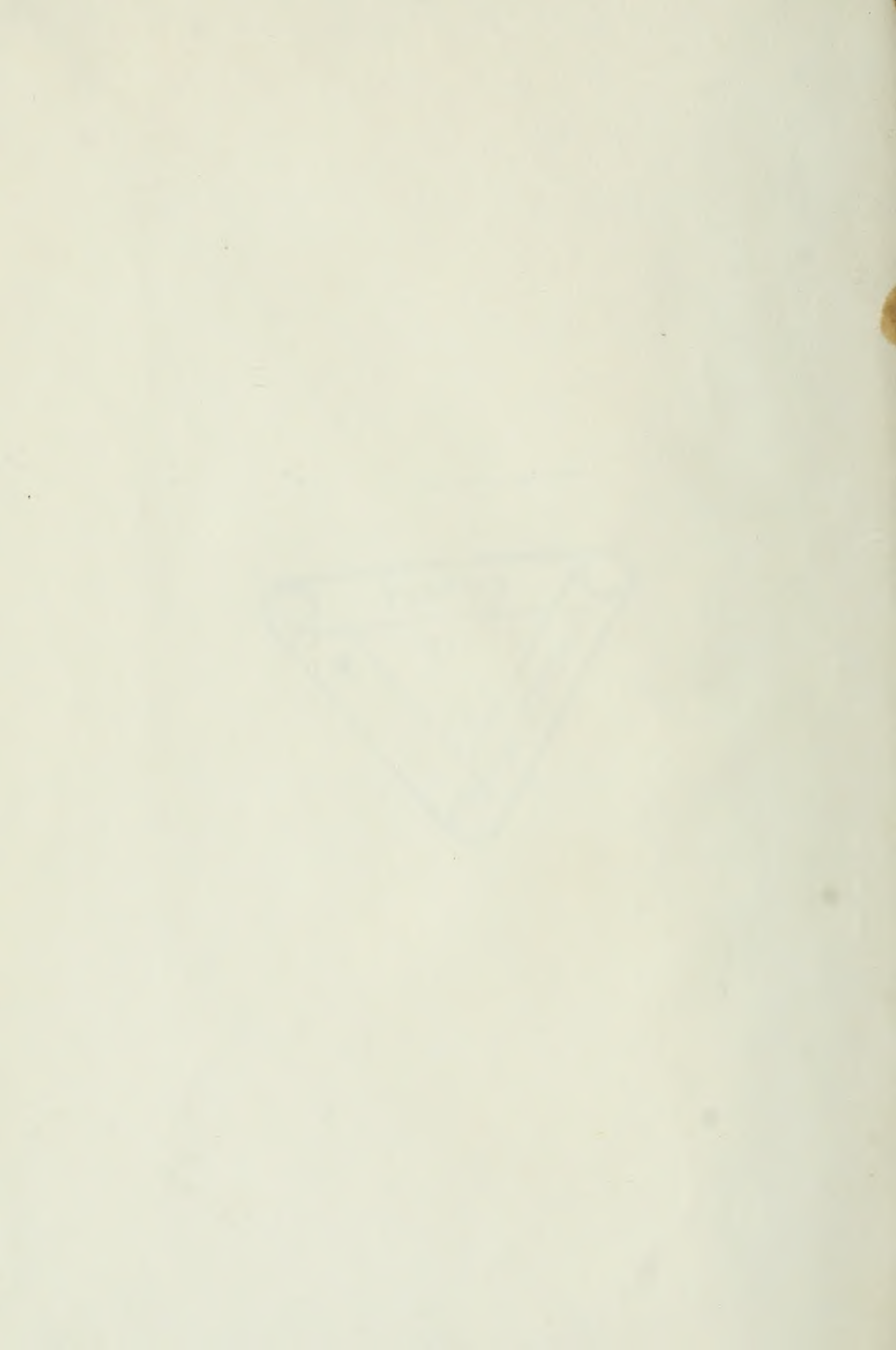
محتويات الجزء الثاني

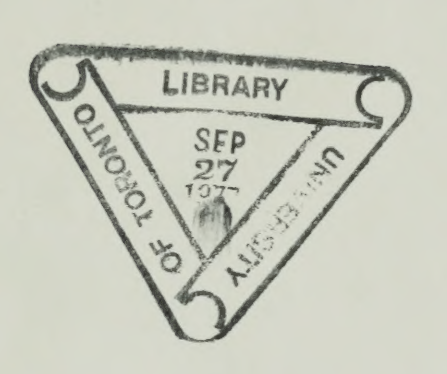
الاسباب التي اعدت لاستعمار الجزيرة – الاحوال الداخلية في الحجاز الخطر الذي يهدد عرش بني هاشم - العمران في الحجاز الامن العام الامام يحى حميد الدين – نبذة من تاريخ اليمن – الائمة الزيدية الحسنية – موقف الامام في الوحـدة العربية – وتأثيره في الوحدة – السلطان ابن السعود – الوهابية – الاحوال السياسية في نجد – الاحوال الداخلية – الامن العام - برنامج ابن السعود في الوحدة القومية .

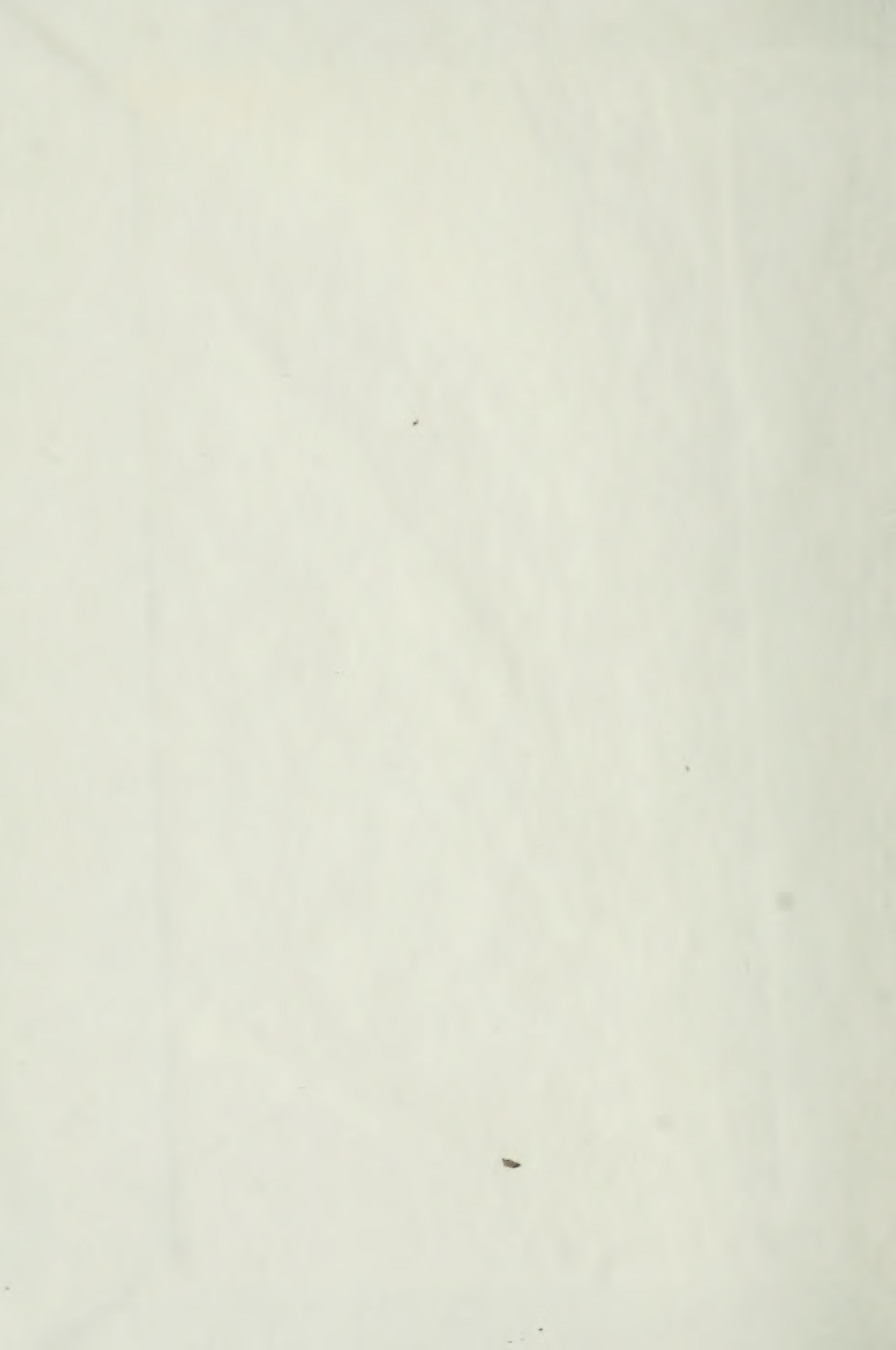
الفصل الثالث

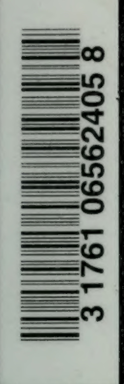
كيف نبعث ؟ مزاج العقلي العربي – استعداد الروح العربية جمعية ميثاق الوحدة برنامجها السياسي – ميثاق القومي العربي . الاسباب والموانع السياسية الخارجية الحائلة دون الوحدة الاستعمار الاوروبي واسبابه – موقع واعتبار الدول العربية في الهيئة المشتركة الدولية الاوروبية . المملكة الصهيونية ؛ نشأتها الاخطار التي تهددها في المستقبل .

العوامل النفسية الحائلة دون الوحدة : تنافس الامراء . اختلاف المذاهب – النصرانية العربية . انحطاط الامة والجهل العميق المستولي عليها – انحطاط العوامل النفسية العربية – واجبات الشبيبة نحو الوحدة ، الهجرة الثانية








3 1761 06562405 8